عزَّت السيِّد أحمد

هؤلاء أساتذتي

تمَّت عمليات التنضيد والإخراج والطباعة في:

دار الأَصـــالة للطـباعة

دمشق ـ معضَّمية الشام ـ الطريق العام ـ ص.ب: ٣٢
Damas, Muaddamet Al Sham:**Al Assala for Prenting**
هاتف: ٦٢١٨٢٦٠ ـ ٦٢١٨٢٥٩

عزَّت السيِّد أحمد

هؤلاء أساتذتي

من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

* الكتاب :**هؤلاء أَساتذتي** :

من روَّاد الفكر العربي المعاصر في سورية.

* المؤلف : **عزت السيد أحمد** .
* **الطبعة الأولى : ١٩٩٤**.
* **النَّاشر:** دار الثَّقافة. دمشق .

الإهداء

ملأى السَّنَابِلِ تنحني بتَواضعٍ

والرَّافعاتُ رؤوسهنَّ فوارغُ

إلى من حَلَّاه علمه بالتَّواضع

إلى أساتذتي هؤلاء؛ القدوة والمثل

أهدي كتابي

عزت

كلمة

كلمة مدح تقال لي خير من ألف
كتاب يكتب عني بعد موتي.
بودلير

لا شكَّ في أَنَّ تكريمَ العظماء مسؤوليةٌ عظمى؛ عظمى لأنَّها مسئولية وأَمانة في الوقت ذاته، وعظمى على مختلف مستوياتها وأَطرها لأنَّها مسئولية قومية ووطنية وإنسانية؛ مسئولية الأُمَّة ومؤسساتها الرَّسميَّة وغير الرَّسميَّة، مسئولية كلِّ فرد وكلِّ مسئول،وهذه المسئولية مفروغٌ منها ولا مجال للشكِّ فيها، ولكنَّ المشكلة الحقَّة تكمن في أَنَّنا لا ننتبه إلى هؤلاء العظماء إلا بعد فوات الآوان، يظل مبدعونا بين ظهرانينا يعانون شظف العيش وضنكه وتقصير ذويهم من بني أُمتهم وتجاهلهم،

ويموت معظمهم قهرا وفقرا في زوايا نكرة من الحياة، ثم إذا مات الواحد منهم أقيمت الدنيا وأقعدت وترافعت أَصوات الحسرة والأسف والنَّدم، والقول كان وكان وكان.

ترى أَنجهل كلُّنا أنَّ كلمة مدح أَو شكرٍ أَو إِعجابٍ أَو إطراءٍ تقال لَهذا المبدع أَوذاك فتنعش قلبه خيرٌ له من أَلف كتاب يدبَّج عنه بعد موته ؟

لا يجهل العظيم قدر نفسه، والمبدع الحقُّ لا ينتظر أَن يحمل على الأكتاف أَوأَن تنهال عليه المدائح والإطراآت، ولكن ذلك شيءٌ عظيم يفرحه ويطمئنه،ويشعره بأنَّه لم يكن نكرةً في أُمَّته، وأَنَّ ما قدَّمه لم يذهب هباءً، يشعر أَصحاب المواهب بأنَّ للعظماء قدرهم وقيمتهم وكرامتهم في أوطانهم، فليس هناك البتة من ينكر أَو يستطيع أَن ينكر أَنَّ الأمة، أَي أَمة، إنَّما هي بعظمائها من الفلاسفة والمفكرين

والعلماء والباحثين والأدباء والقادة.... والدليل الساطع الناصع على ذلك أَنَّ تواريخ الأمم، الأمم كلها، إنَّما هي تواريخ عظمائها ومبدعيها، فتاريخ اليونان هو تاريخ فلاسفتها وحكمائها وقادتها، وتاريخ العرب هو تاريخ إنجازاتهم العلمية والفكرية والأدبية والعسكرة، وتاريخ أوربا الحديث والمعاصر هوتاريخ فنانيها وعلمائها وأُدبائها،وهكذا تواريخ الأمم كلها؛ التاريخ هوما ينجزه المبدعون والعظماء لا الأحداث اليومية أَو الشهرية التي تمرُّ بها الأمة، ومن ذلك يتبين لنا كم نحن مقصرون بحقِّ مبدعينا وعظمائنا الذين أَهزل كثيرًا منهم الجوع وأَجهدهم الركض وراء الرغيف، واجتوت أَفئدتهم من نظرات أَولادهم المليئة بالحسرة والحرمان.

إنَّ الحديث في تكريم الأَحياء من المبدعين والعظماء طويل لا تكفيه

صفحات ولا كتاب، ونحن لاندعي أَننا كرَّمنا أَحدا، فما فعلناه ليس إلا واجب وفاء تجاه أَساتذتي الذين نهلت من مرابعهم وتعلمت على أَيديهم، بل ليس هذا إلا أَقَل الوفاء، وغيضا من فيض عطائهم؛ فهم جميعهم يستحقون أكثر من ذلك بكثير، فنأمل من الله أن يعيننا على شكرهم وإيفائهم ما يستحقون؛ فهم أهلٌ لكل تكريم لأنَّهم أَعطوا من غيرما حدود وكانوا مثال العلماء بجليل أَخلاقهم وسلوكاتهم وعطاآتهم.

عزَّت السـيِّد أحمد

معضمية الشام ـ ١٩٩٤م.

عادل العوا

فيلسوف أخلاقي معاصر[*]

(*) . نشر هذا الفصل في صحيفة الثقافة الأسبوعية . دمشق . العدد ٢٦ في ١٧/٧/١٩٩٢م. وأعيد نشره في مجلة الثقافة الشهرية في عدد أيلول ١٩٩٢م.

هو صديق الصدق، نديم الحق، خدن المروءة والوفاء، صنو الكياسة والنقاء، قليلٌ جدَّاً من المثقفين أولئك الذين لا يعرفونه، فهو كعبة فضل مرتفعة المقام، سرى ذكره كما سرت من الرياض الأنسام، فروضة مآثره يانعة الزهر، ومحاسنه مخلدة على صحائف الدهر، وهو بالرزانة والاتزان قبلة على خدِّ الزمان، وروضةٌ تتفتح فيها الأماني، والحقُّ أَنَّ هذا قليل في حقِّ من لا يدرك وصفه الإغراقُ، ولا تمل التحديق إليه الأحداقُ.

قد يعتقد من لا يعرف أستاذنا الكبير **عادل العوا** أنَّني أبالغ في وصفه، والحقُّ لا أستطيع أن أنكر أنِّي لم أستطع إلا أن أضفي لبوسا من مشاعري، وميولي إليه على وصفيه، لبالغ حبي له، ولكن لا بدَّ أن أبيِّن أَنَّ هذا الوصف نابعٌ أيضاً من وثيق وعمق صلتي به، ومن روح الموضوعية التي تعلمناها على يديه، على حقيقتها، ولولا أَنِّي واجدٌ ما وجدت في نفوس زملائي وأساتذتي وكلِّ من تتلمذ على أستاذنا **عادل العوا**، لقلت في نفسي إنِّي أراه بعين الود والرضا، ويكفي لتوكيد ذلك أن تعلم أنَّ كلَّ من عرف **الدكتور عادل العوا** حقَّ

المعرفة، لا يجرؤ، بينه وبين ذاته، أن يلفظ اسمه مجرداً من لقب أستاذ أو دكتور، إجلالاً واحتراماً لا خوفاً ولا رهبةً.

هكذا عرفت أستاذنا الكبير القدير **الدكتور عادل العوا**، بل هكذا عرفه كلُّ من تتلمذ على يديه، والذين تتلمذوا عليه غير قلة، فإليه يرجع كبير الفضل في تأسيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في جامعة دمشق، كما أنَّه من الرعيل الأول الذي قامت على أكتافه وجهوده الدراسات الأدبية والفلسفية في جامعة دمشق، ولذلك لن تجد واحداً من خريجي المعهد العالي للتربية ثم كلية الآداب، منذ منتصف الخمسينات وحتَّى أوائل السبعينات، لا يعرف الأستاذ الكبير **عادل العوا**، ولا يحدثك عنه بلهفة وشوق كمن يتحدث عن محبوب يحار في وصف مآثره ومحاسنه....أمَّا طلابه المتخصصون في الفلسفة فلا شكَّ في أنَّهم يعرفونه أكثر، ولاشكَّ في أنَّهم يحبونه أكثر.

مكانته وأهميته

يكفي أستاذنا فخراً أنَّه كان من الرعيل الأول الذي وضع حجر أساس الدراسات الأدبية و الفلسفية في الجامعة السورية، وقد أسهم أستاذنا في ذلك بنصيب وافر، ولا سيما في تأسيس الدراسات الفلسفية والاجتماعية، تخرجت على يديه أجيال جدُّ كثيرة من

المثقفين العرب عموماً والسوريين خصوصاً، ومن هذه الأجيال كثيٌر جدًا من المفكرين والباحثين الكبار الذين يشغلون مكانا أساسيا من الساحة الفكرية العربية المعاصرة، ومن هذه الأجيال أيضاً كان الأساتذة الجامعيون من أكثر من جيل، ولذلك لا يمكن لأحدٍ أن يتنكر لمكانته العلية السامية، ولأهمية الدور الذي لعبه **الدكتور عادل العوا** وزملاؤه من أبناء جيله في بناء أجيال المفكرين والباحثين المتتالية؛ الَّتي تشغل كامل الساحة الفكرية العربية الراهنة.

والحقُّ أنَّ أهمية **الدكتور عادل العوا** على هذا الصعيد تكمن في إدراكه وإصراره على أهمية الاتصال والحوار في نقل المعارف، لأنَّ الحوار وحده الكفيل بترسيخ المعرفة وتقويمها وقيادتها الوجهة الأكثر صوابا، وبالحوار يعرف الغثُّ من الثمين، وبالحوار تثار المواهب وتنشط القرائح، ولإيمانه بهذه الحقيقة فقد أفردَ لها فصلا طويلا في كتابه **مقدمات الفلسفة**، مبينا فيه أسلوب التفكير وأسلوب التعلم والتعليم.

على أنَّ مكانة أستاذنا وأهميته لا تنبعان من هذا الجانب وحده، فلا أحد يماري البتة في مكانة **الدكتور عادل العوا** العلمية على صعيد الوطن العربي لوافر ما قدمه للفكر العربي وأهميته ولا سيَّما على صعيد الفلسفة الأخلاقية تأليفا وتعريبا، فقد زيَّن بمآثره الفلسفة الأخلاقية، وملك بنقي ذهنه جواهرها السنية، حتى غدا مرجعاً يصعب الاستغناء عنه لأي باحث في الفكر الأخلاقي والقيمي، فلقد

رفد المكتبة العربية، منذ أوائل الخمسينات وحتى الآن، بأكثر من سبعين كتابا تناولت أكثر من صعيد فكري، ونستطيع القول إلى حدٍّ بعيد إنها شملت مباحث الفلسفة الأخلاقية والقيمية بمختلف جوانبها وتباين أبعادها، ولا أظنُّ أنَّ باحثاً واحداً، على الأقلِّ، قدَّم ما قدَّمه **الدكتور عادل العوا** على هذا الصعيد تأليفاً وتعريباً، ولذلك غدا تراثه الفكري الكبير هذا موئلاً ثرَّاً يمتح الباحثون من معينه، ومرجعاً لا يمكن التنكر لعظيم أهميته، كما لا يمكن الاستغناء عنه.

شخصيته

كثيرًا ما تساءلت عندما كنت طالباً في السنة الأولى /فلسفة / ولم أكن حديث العهد بالجامعة . وقد كان يدرسنا حينها . ما سرُّ سحر هذا الأستاذ ؟ وبأي سلطان استحوذ على قلوب الطلاب ؟ بل كثيراً ما كنت أجد نفسي مندفعا للحديث عن هذا الأستاذ أمام أصدقائي وأهلي حتى طلب كثيرون أن يحضروا محاضراته ويتعرفوا عليه، وما حضر واحدٌ من أصدقائي محاضراته إلا وقال لي: (معك حق في أن تطفق في ذكره) والحق أني . وشأني في ذلك شأن غيري . كلما اقتربت منه أكثر ازداد احترامي له، وتقديري، وازداد إعجابي به، ذلك أن لشخصيته سمات . وإن وجدت عند غيره . إلا أنها عنده ذات طابع خاص متميز، هذا التميز هوالذي يجعله ينفذ إلى شغاف القلوب بكل بساطة وسرعة.

تواضعه الجم قل من ينازعه فيه وندر، ولا عجب أن أبدأ بالتواضع فهوأول وأهم سمة يتسم بها الكبار قدرا ومعرفة، ولذلك قال الشاعر:

ملئى السنابل تنحني بتواضعٍ
والفارغاتُ رؤوسهن شوامخُ

وهذا سبب من أسباب كثيرة شدتنا إليه، لأن (من يتواضع يعلُ بين الناس)، (كالبدر يلوح للناظر على صفحات الماء وهو رفيع) وقد تزين إلى جانب جميل التواضع بجليل الهدوء وسحر الاتزان، وعذوبة انطق وبراعة البيان، يفرض احترامه على الجميع باحترامه للجميع، فهو يحترم الكبير والصغير، ورحب الصدر يستوعب الجميع على تباين أمزجتهم واختلاف ثقافاتهم، ويحادث الجميع بلباقة ولطف آسرين حقاً، معطيا كلَّ واحدٍ حقَّه، مخاطباً إياه بمستواه، فيرتقي بارتقاء المخاطب ويتواضع أمام الطالب أو المخاطب الغرِّ، معلياً شأنه وشاحذاً همته، ليُشْعِرَ من أمامه بأنَّه صديقٌ حقيقي، صديقٌ بكلِّ ما تحمل الكلمة من معنى، ودلائل ذلك جدُّ كثيرة يعرفها طلابه كلهم، فما ذكر اسم طالب أمام الطلبة أو الأساتذة إلا مقروناً بتبجيل لطيف كالسيد أو الأستاذ... ولا قاطع متحدثاً إليه أياً كانت صفته حتى يستوفي كلامه، ولا قطع حديثه مع صغير لتدخل كبير إلا اعتذر ببالغ اللباقة واللطف، وكثيراً ما اعتذر من أستاذ ليستكمل حديثه مع طالب، أو العكس.

وله أسلوب رائع بارع في إظهار صاحب الخطأ على خطأه، حيث ينهج الأسلوب السقراطي في توليد الأفكار، فيجعل المخطئ يقف على خطأه ويدركه وكأنه هو الذي توصل إليه، إنه يستقبل الخطأ برحابة صدره وجليل هدوئه دون أي انفعال قد يربك الطالب أو المخاطب، أو يشعره بالحرج ثم لا يلبث أن يحاوره في ذلك وابتسامته الشفيفة العذبة لا تفارق شفتيه، حتى يوصل المخاطب إلى الصواب ويشعره بأنَّه يعرف الحق والصواب، وما أخطأ جهلاً وإنما زلَّة لسان.

وخلاصة القول في ذلك: إنَّه لم يعنُ بالمباحث الأخلاقية فكراً وتنظيراً وحسب، بل لقد تجسد المعاني الأخلاقية تجسداً كاملاً حتَّى لا نكاد نجد فاصلاً أو فارقاً بين النظر والعمل، بين الفكر والواقع، لدى أستاذنا **عادل العوا** الذي تتطابق فيه الأقوال مع الأفعال، أو المبدع مع إبداعه، وليفترق بذلك عن غالبية المفكرين خاصة، والناس عامة، الذين يقولون ما لا يفعلون« ويأمرون بما لا يأتون به » ليأتي من يعد من يقول: (خذوا بالأقوال ولا تأخذوا بالأفعال) هذه المقولة المضللة التي تعمق الشرخ بين الفكر والممارسة، بين النظر والتطبيق، ولتسوغ بالتالي التقاطب بينهما، وهذا خطأٌ وخطرٌ ينبغي الحذر منه.

ثقافته

إنَّ الأستاذ **العوا** . شأنه شأن كثيرٍ من أبناء جيله الذين أرسوا دعائم الحركة الفكرية والثقافية المعاصرة في هذه المنطقة من الوطن

العربي خصوصاً (سوريا) . ذو معرفة موسوعية شاملة، وينبئ عن سعة الإطلاع هذه لا تراثه الفكري الكبير الذي قدمه وحسب، بل أسلوبه في تناول أو معالجة أي مسألة يبحثها . سواءً في التأليف أو المحاضرة أو الحوار... . حيث يعرج على صلاتها وعلاقاتها مع مختلف ضروب المعرفة، مدعماً كلامه بالشواهد المناسبة من كل صعيد معرفي.

وتتجلى هذه الثقافة الموسوعية الشاملة أكثر ما تتجلى، ويظهر أثرها الواضح، في الحوار الممتع مع الأستاذ **العوا**، حَيْثُ ينقلك ببراعة المتبصر الخبير من فكرة إلى فكرة، ومن علم إلى علم، شرحاً واستفاضةً في تبيان الفكرة موضوع الحوار أو السؤال، دون أن تسمح لك نفسك بأدنى شرود عن ممتع كلامه، أو يشعرك بالملل أو الرتابة المنفرة من الخوض في دقائق تفاصيل المباحث العلمية، كل ذلك وأنت تنظر إليه بعين الدهشة والإعجاب، بل ليس في وسعك إلا أن تفعل ذلك وأنت تنهل من هذا المعين الثر، وتستمرؤ كل ما تنهل، وتستمتع به لأنك تستوعبه، وتقف على أبعاده ببساطة شديدة قل أن يقدمها لك غيره،لأنه ينقلها إليك مبسطة واضحة، بعيدة عن أيِّ ضرب من ضروب التعقيد أو الغموض.

فلسفته

صحيح أنَّه لم يقم مذهباً كاملاً بما تحمله هذه الكلمة من دلالةٍ ومعنى، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر الجهود التي بذلها لإقامة علم مستقل للأخلاق، كاملٍ متكامل، فهل نجح في ذلك أم لا ؟

الحقُّ أنَّ الإجابة عن هذا السؤال تستحق دراسة تخص لهذا الغرض لأنَّ الإجابة، أياً كانت، لا بدَّ أن تكون مدعَّمةً بكامل ما قدَّمه لنا **الأستاذ العوا**، وهذا جهد ليس باليسير إنجازه، ولن تكفيه صفحات قليلة البتة، ولذلك سنقف عند بعض النقاط التي نراها أساسية ومهمة على هذا الطريق، آملين أن تتاح لنا العودة إلى هذا التراث الغني الكبير، كماً وكيفاً، الذي قدمه **الأستاذ العوا** للإجابة على هذا السؤال بزيد من التفصيل.

أولاً: إنَّ أول ما تجدر الإشارة إليه في تآليف **الأستاذ عادل العوا** هو تلك الروح الموضوعية الحقيقية التي تبدو جلية في كتاباته، والأمانة في نقل أفكار وآراء المدارس والاتجاهات الفلسفية المختلفة، دون ما تعصب لرأي أو اتجاه، وهذه صفة قل أن نجدها لدى كثير من الباحثين الذين يجنحون بدوافع شعورية أولا شعورية إلى قراءة أفكار الآخرين بما يتفق وميولهم وأهواءهم، وقل وندر ما تكون مثل هذه القراءة صحيحة، وبقدر تعصب الباحث لاتجاهه الفلسفي يكون فهمه للآخرين أبعد عن الحق والصواب.

ثانياً: لم يعنُ الأستاذ **العوا** بمختلف قضايا الفكر تأليفاً، وفي معظم ترجماته . وإن كانت تشغل حيزاً واسعاً من ثقافته . لأنَّه صرف كامل جهده وعنايته للمسألة الأخلاقية، وكل ما يتصل بها أو يتشعب عنها، آملاً في إرساء دعائم فلسفة أخلاقية كاملة متكاملة، أوفي إقامة علم أخلاقي نستقل، ولكن غير منفصل عن الفلسفة، إذ يرى أستاذنا أنَّ الأخلاق من المباحث الفلسفية الأصيلة، ومهما تطورت وتعاظمت فإنها ستظلُّ في حضن الفلسفة الرؤوم، ولذلك فهو ينتقد أولئك الذين يدعون إلى إقامة علم للأخلاق نستقل عن الفلسفة على غرار علم النفس وعلم الاجتماع...مثل **ليفي بريل** الذي دعا إلى تأسيس علم جديد هو **علم العادات الأخلاقية**.

إنَّ ما يريده أستاذنا ليس علماً مستقلاً للأخلاق على غرار العلوم التي نالت استقلالها عن الفلسفة، وإنما علم، أو لنقل نظرية متكاملة للأخلاق، تتناولها جملةً وتفصيلاً، بكل صلاتها وتفرعاتها وأساليب تناولها ومعالجتها.

ثالثاً: إنَّ ما قدمه الأستاذ العوا على هذا الصعيد جهد يستحق عليه جزيل الشكر، ولا سيما أنَّ أحداً في الوطن العربي على الأقل، لم يقدم مثله أو أقلَّ منه قليلاً، ومن تقليب صفحات هذه المؤلفات نستطيع القول بصورة أولية إنه قدم لنا نظرية كاملة في الأخلاق، عالجت مختلف المعاني الأخلاقية ومتباينات النشاط الأخلاقي،

مسبغاً عليها من روحه وفكره لبوساً مؤنقاً ومؤتلقاً، غير مكتف بعرض آراء الفلسفة وأفكارهم على اختلاف انتماءاتهم الزمنية والمكانية والفكرية.

رابعاً: لقد حاول أستاذنا من خلال ما قدمه أن يقارب بين النظر والعمل، ويمحو الفارق الزائف المصطنع بينها، وليزيل بالتالي التقاطب الماثل بين الأخلاق النظرية والأخلاق العملية لأن الأخلاق هي السلوك أو الفاعلية الواقعية للأفراد، والفلسفة الأخلاقية تهدف إلى دراسة هذا السلوك أو الفاعلية البشرية كشفاً عن العلل والمبادئ، ولذلك نستطيع أن نسمي النظرية الأخلاقية التي قدمها الأستاذ **العوا** بنظرية التجربة الأخلاقية، أو الأخلاق المشخصة كما يحلوله أن يسميها في كتابه **القيمة الأخلاقية** هذه النظرية التي تشرئب إلى تنظيم التجربة البشرية تنظيماً متآلفاً ومنسجماً مع غائية شاملة.

ولذلك انتقد أستاذنا الآراء التي تعمق الشرخ بين الأخلاق النظرية والأخلاق العملية، وتعمق الهوة بين الأخلاق والواقع المعاش للإنسان، فيقول مثلاً: « *رامت المذاهب الأخلاقية المدرسية الكبرى، كمذاهب* ***أفلاطون*** *و****أرسطو*** *و****كانت****، أن تمثل الأخلاق السرمدية الخالدة، أكثر من تمثيلها أخلاق زمان معين، أو بيئة معينة. وإن هذا التطلع إلى الكلية ليتجلى على أكمل وجه في صيغ الأمر القطعي لدى كانت. فيظهر الإنسان في هذا المذهب وقد سُلخ عن*

الظروف والملابسات، وانتزع من الوسط والزمان، حتى بات بمثابة ضرب من التجريد المختزل يمكنه من الخضوع بيسر إلى قاسم مشترك» (القيمة الأخلاقية / ١٥. ١٦).

محطات في حياته

- ولد بدمشق عام ١٩٢١ ودرس في المدارس الحكومية وحصل على شهادة البكالورية السورية (فلسفة) عام ١٩٣٨.
- سافر في خريف ١٩٣٨ إلى فرنسا ودرس في كلية الآداب بجامعة باريس (السوربون)وحصل على الإجازة، ثم الدكتوراه من جامعة باريس (آداب / فلسفة) حزيران ١٩٤٥.
- عاد إلى سوريا في شهر آب ١٩٤٥ وبدأ حياته العملية بالتدريس في المدارس الثانوية وفي دار المعلمين بدمشق حتى افتتحت كلية الآداب والمعهد العالي للمعلمين في جامعة دمشق سنة ١٩٤٦ فسمي فيها أستاذاً وكلف بإدارة المعهد العالي للمعلمين حتى عام ١٩٤٩ إذ سمي أستاذاَ في كلية الآداب ورأس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية منذ ذلك الحين وحتى إحالته إلى التقاعد بعد التمديد عام ١٩٩٠.
- رأس إلى جانب عمله الجامعي لجنة التربية والتعليم في وزارة التربية بدمشق حتى ٢٦/ ١٢ / ١٩٥٥.

- أصبح وكيلاً لكلية الآداب خلال سنتين ثم عميداً لهذه الكلية منذ عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٣.
- شارك في مؤتمرات ودورات علمية عديدة منها: اليونسكو(بيروت . ١٩٤٩) وباريس (١٩٥١) ولدراسة فلسفة تربوية متجددة لعالم عربي متجدد (الجامعة الأميرية / بيروت . ١٩٥٦) وللمستشرقين (ميونخ . ١٩٥٧) وللفلسفة (كراتشي . ١٩٦١) ولتطوير التعليم العالي والجامعي (دمشق . ١٩٧١)وللعلوم الاجتماعية (الجزائر . ١٩٧١٩ وغيرها من الحلقات الدراسية الفلسفية والاجتماعية.
- أسهم في أعمال اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية وهو عضو في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ومقرر لجنة الترجمة والتبادل الثقافي عن القطر العربي السوري.
- عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

حاضر ودرس في الجامعات الأردنية واللبنانية والجزائرية وفي جامعة هلسنكي بوصفه أستاذاً زائراً، كما حاضر في جامعتي الكويت واليرموك.

آثاره المطبوعة

ذكرنا أن **للأستاذ العوا** أكثر من سبعين كتاباً مطبوعاً مابين تأليف وتعريب، هذا فيما خلا المحاضرات والمقالات الكثيرة

المنشورة في المجلات والموسوعات والندوات؛ مثل الموسوعة الفلسفية ومحاضرات وزارة الثقافة ومجلة الثقافة وغيرها من المجلات.
أما المؤلفات فهي حتى إعداد هذا الكتاب:

١. الفكر الانتقادي لجماعة إخوان الصفا (بالفرنسية) . المطبعة الكاثوليكية . بيروت . ١٩٤٨م.
٢. منتخبات إسماعيلية تنشر لأول مرة . تحقيق ومقدمة . جامعة دمشق . ١٩٥٨م.
٣. المذاهب الأخلاقية (جزءان) . جامعة دمشق . ١٩٥٨/١٩٥٩م.
٤. القيمة الأخلاقية . جامعة دمشق . ١٩٦٠م.
٥. الوجدان . جامعة دمشق . ١٩٦١م.
٦. التجربة الأخلاقية (جزءان) . جامعة دمشق . ١٩٦٢م.
٧. معالم الكرامة في الفكر العربي . مطبعة الأمل . دمشق . ١٩٦٩م.
٨. من الشرف إلى الكرامة . مطبعة الأمل . دمشق . ١٩٧٣م.
٩. الأخلاق . جامعة دمشق . ١٩٧٥م.
١٠. الإنسان ذلك المعلوم . عويدات . بيروت/باريس . ١٩٧٧م.
١١. علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي (بالاشتراك) . عويدات . بيروت /باريس . ١٩٧٧م.
١٢. أسس الأخلاق الاقتصادية . جامعة دمشق . ١٩٨١م.
١٣. المدخل إلى الفلسفة (بالاشتراك) . جامعة دمشق .١٩٨٢م.

١٤.دراسات أخلاقية . جامعة دمشق . ١٩٨٣م.

١٥.العمدة في فلسفة القيم . دار طلاس . دمشق . ١٩٨٦م.

١٦.المعتزلة والفكر الحر . دار الأهالي . دمشق . ١٩٨٧م.

١٧.المذاهب الفلسفية . جامعة دمشق . ١٩٨٧م.

١٨.مقدمات الفلسفة . جامعة دمشق . ١٩٨٧م.

١٩.بحوث أخلاقية . جامعة دمشق . ١٩٨٨م.

٢٠.الفلسفة الأخلاقية . جامعة دمشق . ١٩٨٨م.

٢١.الأخلاق والحضارة . جامعة دمشق . ١٩٨٩م.

٢٢.أخلاق التهكم . دار الحصاد . دمشق . ١٩٨٩م.

٢٣.مذاهب السعادة . دار الفاضل . دمشق . ١٩٩١م.

٢٤.تحديث الأسرة والزواج . دار الفاضل . ١٩٩١م.

٢٥.المزاج الحضاري في الفكر العربي . دار شمأل . دمشق . ١٩٩٢م.

٢٦.دروب الهموم والخلاص عربياً وعالمياً . دار طلاس . دمشق . ١٩٩٣م.

٢٧.حقيقة إخوان الصفاء . دار الأهالي . دمشق . ١٩٩٣م.

٢٨.لقاء القيم . دار الحكمة . دمشق . ١٩٩٣م.

٢٩.أخلاقنا الاقتصادية . دار الحصاد . دمشق . ١٩٩٤م.

٣٠.مواكب التهكم . دار الفاضل . دمشق . ١٩٩٤م.

أما ترجماته فهي:

١. إتين جلسون: **مدرسة الآلهات** . الشركة العربية للصحافة والطباعة والنشر . دمشق . ١٩٦٥م.

٢. إدوار مورو سير: **الفكر الفرنسي المعاصر** . عويدات . بيروت . ١٩٧٨م.

٣. أندره لالاند: **العقل والمعايير** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٦٦م.

٤. بول سيزاري: **القيمة** . عويدات . بيروت .١٩٨٣م.

٥. بيار منار: **كيركغارد** . عويدات . بيروت . ١٩٨٣م.

٦. بيير بورديو: **العقلانية العملية؛ حول الأسباب العملية ونظرياتها** . دار كنعان . دمشق . ٢٠٠٠م.

٧. جاستون باشلار: **الفكر العلمي الجديد** . وزارة الثقافة . ١٩٦٩م.

٨. جان كزنوف: **السعادة والحضارة** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٧٣م.

٩. جان كزنوف: **دعائم علم الاجتماع** . دار طلاس . دمشق . ١٩٨٩م.

١٠. جان ماري أوزياس: **الفلسفة والتقنيات** . عويدات . بيروت . ١٩٧٥م.

١١. جب: **بنية الفكر الديني في الإسلام** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٥٩م.

١٢. جورج باستيد: **المدنية؛ سرابها ويقينها** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٥٧م.

١٣. روبرت بلانشه: **المعقولية والعلم الحديث** . وزارة الثقافة . ١٩٨١م.

١٤. روجيه جارودي: **حوار الحضارات** . عويدات . بيروت . ١٩٧٨م.

١٥.روجيه ميل: **المواقف الأخلاقية** . عويدات . بيروت . ١٩٨٧م.
١٦.روز ماري باستيد: **الحرية** . دار طلاس . دمشق . ١٩٩٠م.
١٧.ريمون بولان: **الأخلاق والسياسة** . دار طلاس . دمشق . ١٩٨٨م.
١٨.ريمون بولان: **الحرية في عصرنا** . دار طلاس . دمشق . ١٩٩٣م.
١٩.ريمون رويه: **السيبرنتيك وأصل الإعلام** . وزارة الثقافة . ١٩٧١م.
٢٠.ريمون رويه: **الممارسة الايديولوجية** . عويدات . بيروت . ١٩٧٨م.
٢١. ريمون رويه: **عالم القيم** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٦٩م.
٢٢.ريمون رويه: **فلسفة القيم** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٦٠م.
٢٣.ريمون رويه: **نقد الايديولوجيات المعاصرة** . عويدات . بيروت . ١٩٧٨م.
٢٤.ريمون رويه: **نقد المجتمع المعاصر** . عويدات . بيروت/باريس . ١٩٧٨م.
٢٥.رينيه بواريل: **الاختراع** . دار شمأل . دمشق . ١٩٩٢م.
٢٦.سيجموند فرويد: **عسر الحضارة** . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٧٥م.
٢٧.شارل لالو: **الفن والأخلاق** . الشركة العربية للصحافة والطباعة والنشر . دمشق . ١٩٦٥م.
٢٨.شارل لالو: **الفن والحياة الاجتماعية** . دار الأنوار . بيروت . ١٩٦٦م.
٢٩.شواوي وزملاؤها: **معنى المدنية** . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٧٨م.
٣٠.فرانسوا سليه: **الأخلاق والحياة الاقتصادية** . عويدات . بيروت . ١٩٨٠م.

٣١.كارل يسبرز: **عظمة الفلسفة** . عويدات . بيروت . ١٩٧٥م.
٣٢.كارل يسبرز: **فلاسفة إنسانيون** . عويدات . بيروت . ١٩٧٥م.
٣٣.كارل يسبرز: **نهج الفلسفة** . دار الفكر . دمشق . ١٩٧٥م.
٣٤.كازا مايور: **العدالة للجميع** . دار الفاضل . دمشق . ١٩٩٣م.
٣٥.لويس دللو: **الثقافة الفردية وثقافة الجمهور** . عويدات . ١٩٨٢م.
٣٦.ليون مينار: **الانتحار والأخلاق** . دار دمشق . دمشق . ١٩٨٧م.
٣٧.مجموعة من المؤلفين: **الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية** (بالاشتراك) . وزارة التعليم العالي . دمشق . ١٩٧٦م.
٣٨.محمد آركون: **الفكر العربي** . عويدات . بيروت/ باريس . ١٩٨٢م.
٣٩.نخبة من الأساتذة: **أضواء عربية على أوربا في القرون الوسطى** . عويدات . بيروت .١٩٨٣م.
٤٠.هنري آرفون: **جورج لوكاتش** . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٧٠م.
٤١.هنري آرفون: **فلسفة العمل** . عويدات . بيروت . ١٩٧٧م.
٤٢.هنري سيمون: **الفكر والتاريخ** . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب . دمشق . ١٩٦٣م.
٤٣.يوسف كومبيز: **القيمة والحرية** . دار الفكر . دمشق . ١٩٧٥م.

وأخيراً:

إنَّ ما ذكرناه عن فلسفة الأستاذ **عادل العوا** إنما هو غيض من فيض، ففيما قدَّمه لنا مادة جدُّ غنيةٍ للبحث والدراسة، وجدُّ ممتعة للقراءة والتأمل، وجدُّ مفيدة لمن أراد أن يُغني عقله ويوسع أفقه ولا

سيما في إطار المعاملات، أو التعامل مع الذات أولاً والآخرين ثانياً ومواضيع الحياة ثالثاً، ولأن هذه المعاملات بمستوياتها الثلاثة ملازمة لكل لإنسان غير منفكة عنه أبداً، حتى تكاد تشكل نسيج حياته ووجوده فقد كرَّس **الأستاذ عادل العوا** جلَّ كتاباته لإغنائها وتبيانها وكشف عللها ومبادئها، ليقدمها لقمة سائغة للناس كلهم...بل لكلِّ من أرادها، ومن أراد الشيء بحث عنه ونقَّب.

دمشق في ١٥/٦/ ١٩٩٢.

بديع الكسم

فيلسوف ولكن[*] !

[*] . نشر هذا الفصل . باستثناء بعض فقراته . في صحيفة الثقافة الأسبوعية . العدد ٢٤ في ١٩٩٢/٧/٣م. وأعيد نشره في المجلة الشهرية، في عدد تموز ١٩٩٢م.

ولد الدكتور **محمد بديع الكسم** سنة ١٩٢٤م، في حي مأذنة الشحم، أحد الأحياء الدمشقية العريقة، وقد كان لأُسرته التي اشتهرت بالتقوى والصلاح والهدى والعلم كبير الأَثر في نشأته من حيث الشغف بطلب العلم وملازمته أهل العلم، والتعلق بالأخلاق الفاضلة وتمثلها في حياته سلوكاً فعلياً لا شكلياً.

دون أن ننسى العاطفة الوطنية والقومية الصادقة والجادة في الدعوة والسعي إلى مجد الوطن وعزته، ومحاولة رسم الصور المشرقة لمستقبل هذا الوطن؛ فأبوه الشيخ **محمد عطا الله الكسم** (١٨٤٤/١٩٣٨) الذي كان من كبار فقهاء الحنفية في

دمشق، واختير من الحكومة العربية ليكون المفتي العام للديار الشامية منذ عام ١٩١٧ وظل فيه حتى وفاته عام ١٩٣٨م.

نال الأستاذ **الكسم** الشهادة الثانوية العامة عام ١٩٤٢ وفي العام ذاته عُيِّن موظفاً في المكتبة الظاهرية التي أمضى فيها عاماً، ليتجه بعده إلى القاهرة للالتحاق بكلية الآداب بجامعة **فؤاد الأول** (القاهرة حالياً) في العام الدراسي ١٩٤٣/١٩٤٤م. ويتابع دراسته الجامعية في قسم الفلسفة وينال الإجازة الجامعية عام ١٩٤٧م، ويُتبعها بدراسة عالية في العام التالي مباشرة. ولدى عودته إلى سورية عُين مدرساً في اللاذقية للعام الدراسي ١٩٤٨ م/١٩٤٩ م. وأصبح في العام التالي عضوا في لجنة التربية والتعليم بدمشق، ليُختار في العام التالي (١٩٥٠) للتدريس في جامعة دمشق.

أُوفد إلى القاهرة من ١٩٥٤/١/١م حتى ١٩٥٤/٩/٣٠م، ومنها مباشرةً إلى جنيف في سويسرا، لمتابعة الدراسات العليا والحصول على درجة الدكتوراه التي حصل عليها عام ١٩٥٨م، عن رسالته المتميزة جداً: (**فكرة البرهان في الميتافيزياء**) أو **البرهان في الفلسفة** « في الترجمة العربية التي عني بها مشكوراً الأستاذ **جورج صدقني**» وصدرت عن وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٩١م. ولقد كانت هذه الرسالة محط إعجاب وتقدير كبار الفلاسفة الأوربيين المعاصرين، أمثال: **إيكول** و**بورجلان** و**ليفراز** و**بوخنسكي**. وأُعيد

طبعها ثانيةً بطبعةٍ أصدرتها دار المطابع الجامعية التي اختصت بنشر كتب كبار الفلاسفة المعاصرين.

أصبح أستاذاً مساعداً في جامعة دمشق عام ١٩٥٨م. ثم أُعير في العام التالي إلى وزارة التربية والتعليم المركزية في القاهرة إبان الوحدة.وفي عام١٩٦٨م رقي إلى رتبة أستاذ في جامعة دمشق، وأُعير في العام ذاته إلى جامعة الجزائر للإسهام في تعريب التعليم ونشر الثقافة العربية في هذا البلد الشقيق الذي بذل الاستعمار الفرنسي عزيز جهوده لتغريبه وسلخه عن العروبة، ويعود إلى دمشق عام ١٩٧٢م. وأُوفد للبحث العلمي إلى فرنسا وسويسرا من عام ١٩٨١م إلى ١٩٨٢م. وفي ١٩٩٠/١٠/١٧ مجمع اللغة العربية أصبح عضواً عاملا في بدمشق.

قد لا يعرف الناس كلهم من هو **الدكتور محمد بديع الكسم**، وهذا أمر طبيعي، ولكن من النادر جداً أن تجد متماً بالفكر الفلسفي لم يسمع عن هذه الشخصية الفلسفية الفذة...المتفردة بكثير من الصفات والمزايا التي قلما تجتمع عند غيره من المفكرين العرب المعاصرين.

وهنا قد يتساءل بعض من لم يعرف **الدكتور الكسم**: بِمَ تعدُّ الدكتور **الكسم** شخصيةً فلسفيةً فذةً، وما الخصائص التي تفرَّد بها؟

الحقيقة أني وقبل أن أجيب عن هذا السؤال لا بد أن أبين أن اعتباري هذا **للدكتور بديع الكسم** ليس جديداً، ولا ابتداعاً مني،

ويكاد يكون تحصيل حاصل « فلا أحد يماري في مكانة **الدكتور بديع الكسم** الرفيعة... ولا يختلف اثنان من المعنيين العارفين في هذا الشأن (**جورج صدقني**)» وكل من أراد اليقين من هذه الحقيقة ما عليه إلا أن يسأل أي دارس أو مهتم بالفلسفة: من هو **بديع الكسم؟**

وأياً كان الجواب ممن لم يعرف **الدكتور الكسم** أولم يتعامل معه مباشرةً، فلن يكون وافياً، بل إن من يعرفه حق المعرفة قد يعجز حفاً عن إيجاد الكلمات المناسبة التي تفيه حقه، وسأُحاول فيما يلي أن أكشف عن بعض معالم هذه الشخصية حسبما عرفتها وعرفها زملائي الذين سبقوني في التتلمذ على يديها. وقبل أن أبدأ ذلك لا بد أن أرض لآراء بعض المفكرين ـ عرباً وغربيين ـ بالدكتور **الكسم**.

الكسم في نظر بعض المفكرين

بادئ ذي بدءٍ لا بد من الإشارة إلى أن من يجلس مع **الدكتور الكسم** ويتجاذب معه أطراف الحديث حول أية مشكلة فلسفية لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الدهشة والانبهار لما يجد عند هذا الفيلسوف من ثقافة موسوعية تكاد تكون شاملة، ويزداد الاندهاش كلما ازدادت ثقافة المتحدث ودرايته مع الأستاذ **الكسم**، لأنه سيجد نفسه نقطةً في بحر هذه الموسوعة التي اشتملت كل ما يخطر بالبال ولا يخطر، من آراء وأفكار ونظريات وأسماء أعلام... ولا نعدو

الحقيقة البتة إذا قلنا إن **الدكتور الكسم** موسوعة فلسفية شاملة، مجسدة،انتظمت وفق مختلف أنواع التصنيف والترتيب وتباينها.

جورج صدقني:

يقول، من بين كثير من الأقوال: لا أحد يماري في مكانة **الدكتور بديع الكسم** الرفيعة بوصفه أستاذاً للفلسفة، ولا يختلف اثنان من المعنيين العارفين في هذا الشأن (من مقدمة ترجمته لكاب **الدكتور الكسم**: البرهان في الفلسفة).

أنطون مقدسي:

بديع الكسم ليس جدلياً وحسب، بل هو فيلسوف أصيل، في ذهنه الخطوط الكبرى لفلسفة حاضرة ضمناً في الرسالة الجامعية. وكم كنت ـ أنا وغيري من أصدقائه ـ لم أنه خرج عن صمته المستمر وكتب هذه الفلسفة. إذ ستكون بدون شك كما قال له **الأستاذ رينه شرر**، المشرف على الرسالة عند مناقشتها: بداية عودتنا نحن الرب إلى عالم الفلسفة (من دراسة له عن كتاب البرهان في الفلسفة نشرت في مجلة المعرفة ـ العدد ٣٣٤).

شاكر الفحام:

يقول واصفاً مشاعره إثر أول لقاء لهما عام ١٩٤٢م قبل أن ينهي **الدكتور بديع** دراسته الثانوية: أخذ بزمام الكلام، وعرض موضوعه عرض العارف الفطن، وقد بهرني حسن منطقه، وتدفق عاطفته، واسترساله في حديثه، وراعني سعة معارفه، وتفتخ فكره، وقوة حجته، وإحاطته وتعمقه، وشدة عارضته في الجدل والإقناع (من كلمته في حفل استقبال **الدكتور بديع** في مجمع اللغة العربية).

حكمة هاشم:

يقول الأستاذ **جورج صدقني**: لقد كان الدكتور **حكمة هاشم** يحمل أعلى الشهادات العلمية في الفلسفة من السوربون، وكان صارماً ذا هيبة، إن لم أقل رهبة في نفوس الطلاب، لكن لم يجد حرجاً . لما يتحلى به من روح علمية ومن تواضع عميق في أن يحيلني على **الأستاذ الكسم**، بقوله وقد علا ثغره ظل ابتسامة: « اسأل **الأستاذ الكسم** فهو أكثر إطلاعاً مني في هذا المجال» على رغم أن **الأستاذ الكسم** حينها لم ينقض على تخرجه من جامعة القاهرة، حاملاً الدرجة الجامعية الأولى سوى بضع سنوات، ولم يمض على ممارسته التدريس سوى سنتين أو ثلاث سنوات في أقصى تقدير.

سامي الدروبي:

وفي حديث دار بين الأستاذ **سامي الدروبي** . وقد كان عائداً لتوّه من الإيفاد . والأستاذ **جورج صدقني**،في عام ١٩٥٣، وعندما عرف الأول أن **الأستاذ الكسم** يدرس الفلسفة العامة في جامعة دمشق، قال:« استفيدوا، يا **جورج**، من الأستاذ **بديع**، **بديع** أحسن أستاذ فلسفة في الشرق الأوسط».

ولكن ماذا قال المفكرون الغربيون عن **الدكتور الكسم**؟

مما يجدر ذكره أن أستاذنا **الكسم** قد نال شهادة الدكتوراه من جامعة جنيف برسالة عنوانها: بحث في فكرة البرهان في الميتافيزياء. هذا البحث الذي لقي صدًى جليلاً في أوساط الفكر الأوربي، وهو الذي دفع بكثير من المفكرين إلى الإدلاء بآرائهم المشرفة بالدكتور **الكسم**، ومن هؤلاء المفكرين:

جان إيكول . Jean Ecole:

يقول في مجلة الدراسات الفلسفية . العدد الأول / سنة ١٩٦٠م. مبيناً أهمية الموضوع الذي طرقه **الأستاذ الكسم** وصعوبته، مثنياً على براعته وعلى قدرته في معالجة البحث وصياغته: « إن السيد **الكسم** لم يتصد لموضوع سهل، لهذا لا نستطيع إلا أن نثني على الشجاعة التي أظهرها، وعلى الطريقة الواضحة والدقيقة التي عالج فيها هذا الموضوع».

بورجلان .Burgelan:

يقول في مجلة التاريخ والفلسفة الدينيين . سنة ١٩٦٠م، مقرظاً الجهد الذي بذله **الدكتور الكسم** لفهم المهمة الفلسفية:« هذا الكتاب إسهام جيدٌ في الجهد الذي بذله الوضعيون والمناطقة والمؤرخون لفهم المهمة الفلسفية».

ليفراز .Leyvraz:

ولقد أطرى هذا المفكر إطراءً بالغ الأهمية، على الصعيد الفكري، على ما قدمه **الدكتور الكسم**، في مجلة اللاهوت والفلسفة، سنة ١٩٦٠م، واصفاً الكتاب بأنه (**دفاعٌ عن الفلسفة**) ويلحف على كلِّ مهتم بالفلسفة قراءة غدا الكتاب، فيقول:« إنَّ هذا الكتاب الممتاز كتاب ربَّما وجب على كل مهتم بالفلسفة أن يقرأه».

بوخنسكي Bochenski- :

أما رأي **بوخنسكي** الفيلسوف الشهير فربما يكون خير تعليق على كتاب **الدكتور الكسم** لما ينطوي عليه من دلالة مهمة، حيث رأى من خلال هذا الكتاب أن العرب قد انتفضوا من سباتهم وعادوا من جديد إلى الإسهام في العمل الفلسفي، فيقول:« الآن نستطيع القول إن العرب قد عادوا بعد غياب طويل إلى الإسهام في العمل الفلسفي، وبالتالي إلى القيام بدورهم في بناء الحضارة الإنسانية».

وكما أنَّ الطبعة الثانية من كتاب **الأستاذ الكسم**، التي صدرت في باريس، قد صدرت ضمن أشهر السلاسل الفلسفية في العالم، التي تضم بين عناوينها مؤلفات مشاهير الفلاسفة الفرنسيين أمثال: **هنري برجسون وجاستون باشلار وبرونشفيج** وغيرهم، كذلك أوردت بعض مطولات المؤلفات الفلسفية فِقرات من هذا الكتاب مع التأييد والتقريظ، مثل كتاب **جابوريو: فنومنولوجيا الموجود**. الذي صدر بالفرنسية بباريس سنة ١٩٦٣م.

موسوعية الكسم

سبق أن وسمنا **الدكتور بديع الكسم** بأنَّه موسوعة، بل موسوعات، فلسفية مسطورة في عقل بشري، وهذا مما يؤكده كل من عرف **الدكتور الكسم**، والحقيقة أن هذا الوسم لا ينطلق من فراغ أومعرفة طارئة...عرضية، كما لم يدفع إليه ميل أو هوًى، والقول بأنَّ ما يبدو لنا

ثقافة ومعرفة موسوعية قد يكون مستنداً إلى تحضير مسبق لموضوع النقاش قول باطل ولا شك، لأنَّه يفترض أنَّ **الأستاذ الكسم** يعرف مسبَّقاً ماذا سيسأله الآخرون، وهذا ما لا يقع.

إن هذه الثقافة الموسوعية حاضرة في كل زمان ومكان وظرف، ولا أنكر أنِّي كنت أميل إلى الاعتقاد السابق فيما كان يروى لي من أخبار عنه، قبل وفي أثناء دراستي الجامعية (قبل أن يدرِّسني وقبل أن أعرفه بشكل مباشر)، الأمر الذي أثار فضولي ودفعني إلى استعجال لقائه ومساءلته في مسائل وأسماء فلاسفة ومفكرين جد مغمورين، بعيدين عن أذهان كثير جداً من دارسي الفلسفة المهتمين ومعارفهم، ليفاجئني يتدفق سيل أفكاره ومعلوماته التي تكاد لا تترك شاردة ولا واردة حول الموضوع أو الفيلسوف الذي اعتقدت أنه لا بد أن يكون بعيداً عن متناوله أو أنه قد نسيه...

« **وبديع الكسم**، كما يقول الأستاذ **أنطون مقدسي**، جدلي بارع يتلاعب بالنظريات تلاعب عازف الكمان البارع بآلته، ويكشف بسرعة خاطفة عن حدود فمر كبار الفلاسفة. ولا يخلوأحياناً تحليله لنظرياتهم من سخرية تظهر، لا في الكلمات، بل بينها».

وكذلك الأمر بالنسبة للمصادر والمراجع الفلسفية العربية؛ المعربة خصوصاً والأجنبية عموماً، فإنك لتحسب أنه مسرداً لكتب الفلسفة، ويكفيك حتى تدرك ذلك وتتأكد منه أن تسأله أين تجد موضوعاً ما. والحقُّ أَنَّ هذا الأمر ليس بحاجة إلى دليل لأنه مثبت ومسلم به للأستاذ **الكسم** من كل من عرفه.

وللإنصاف أيضاً، فهذا الأمر ليس حديث العهد عند الأستاذ **الكسم**، فلقد سألت كثيراً من دارسي الفلسفة من أجيال متباينة عن هذه السمة عند أستاذنا، فكانت الأجوبة جد متقاربة، ولقد أكد ذلك الدكتور **شاكر الفحام** بقوله:« لقد كان في انكبابه على العلوم وقراءته المتواصلة ليل نهار، وشغفه بالكتب وتحصيلها ومطالعتها يذكرني دائماً بسيد كتاب العربية **أبي عثمان الجاحظ** الذي كان يكتري دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للنظر...

ويروعك في الأستاذ الكريم هذه المتابعة لأحدث ما يستجد على الساحة العلمية، ثم هذه السعة في دائرة المعرفة؛ فهو، وإن جعل همه ووكده الفلسفة وعلومها المختلفة، يشارك في الآداب وعلوم اللسان والتاريخ وأمثالها المشاركة الجادة، وكأنه لا يريد أن يقصر تخصصه عن الإلمام بطرف من كل فن.

ويتابع الأستاذ **الفحام** بقوله: ولقد شهد **للدكتور الكسم** عارفوه وزملاؤه، من الأساتذة الكبار والعلماء الجلة، بسعة العلم، ووفور المعرفة، والإطلاع المحيط الشامل وأفاضوا في الثناء عليه».

وقد كتب الأستاذ **جورج صدقني** . في مقدمة ترجمته لكتاب الدكتور **الكسم: البرهان في الفلسفة** . وهو من الرعيل الأول الذي تتلمذ على يدي الأستاذ **الكسم**، مشيراً إلى أنه كان منصرفاً « انصرافاً كلياً إلى البحث الفلسفي، زد على ذلك ما لمسته لديه . كما لمسه غيري من الطلاب . والقول للأستاذ **صدقن**ي . من سعة إطلاعٍ ليس لها

نظير، فكم مرة كان يفاجئنا . في أثناء عرض موضوع من الموضوعات الفلسفية بعرض رأي فيلسوف تركي أوياباني، لم يسمع به أحدٌ من قبل، إلى جانب آراء **ديكارت وكانت وهيجل** وغيرهم من مشاهير الفلاسفة، كان دودة كتب يلتهم الكتب التهاماً، ولا يشبع، وما كان يمكن أن يمضي أيام قليلة على صدور أي كتاب حديث في ميدان الفلسفة، حتى تجده في مكتبته الشخصية، وبالضرورة . كمثل ضرورة قوانين الطبيعة . جاهزاً لتستعيره منه، بعد أن يعطيك فكرة وافية عن محتواه».

ويروي لنا الأستاذ **شاكر الفحام** قصة طريفة عن وله الأستاذ **الكسم** بالقراءة وتعلقه بالكتاب الذي يكاد لا يفارقه لحظة فيقول:« وشاءت المصادفات السعيدة أن ألتقي الدكتور **بديع** في أحد الأسفار . كانت سفرته الأولى إلى القاهرة لمتابعة الدراسة الجامعية . واصطحبنا من دمشق، ولفت نظري أن وجدت كيساً كبيراً (عِدلاً) ملقًى بين الحقائب. وسألت صديقي: ما أمر هذا الكيس؟ فقال: إنه يحوي مجموعة من كتبي، وعجبت وقلت: إنك كجالب التمر إلى هَجَر. الكتب في مصر كثيرة، والحصول عليها ميسور، وهي رخيصة السعر. ففيمَ العناء؟ وأجاب: أعرف ذلك كله، وإنما أتيت بهذه الكتب لأعود إليها في الأيام الأولى قبل أن أصل إلى مكتبات القاهرة وكتبها».

شخصيته

قد يعتقد كثيرون أن شخصاً في هذه المكانة، وعلى هذا القدر من المعرفة والثقافة، لا بد أن يكون على قدر من الغرور أو التعالي،

وربما العجرفة... أو على الأقل لاينفك يتحدث عن ذاته...ولكن الحق خلاف ذلك تماماً، إذ إنه مثال الفيلسوف الحق الذي تجسد أفعاله أفكاره، فتنطبق عليه المقولة الشائعة بين أوساط المثقفين بل والعامة أيضاً، والتي تقول: (**كلما ازددت علماً ازددت تواضعاً**) وهذا هو **بديع الكسم** حقاً، كما أنه شخصية متزنة التصرفات والأفعال، رزينة، عميقة التفكير، متوازنة، وهو وإن كان يتسم على العموم بالهدوء والتحكم بانفعالاته إلى درجة شديدة، إلا أنه سرعان ما يحتد من الخطأ أوالمغالطة، وسرعان ما تبدوعليه دلائل الاستياء. ولكنه سرعان ما يفرج عن قلب مُحَالسه بتعليق طريف ينم عن بديهة حاضرة، وقريحة بارعة، توحي للمرء بغلطه في الوقت الذي ينتزع فيه الضحكة من فيه، دون أن يجرح أويخدش أحاسيسه، ومثل هذه، المواقف جد كثيرة.

ولذلك . كما يقول الدكتور **الفحام** .« لعل كلمة (المعلم) بمعناها القديم الذي تحيطه هالة من الاحترام والتبجيل أدق الكلمات تعبيراً عما أريد أن أصف به الأستاذ الزميل الدكتور **الكسم**. لقد قضى حياته معلماً يدرس ويحاضر. وهذا الجانب استنفد جل طاقاته. إنه يقف في مصاف ألئك المعلمين الكبار، والمفكرين العظام، قد وهب نفسه للتعليم والإفادة. يقدم لطلابه وسائليه العلم من أوسع أبوابه، ويشجعهم على اقتحام عقباته، ويبسط لهم المصادر

والمراجع، ويعيرهم من مكتبته الكتب النوادر التي لا تكاد تجدها في المكتبات الكبيرة».

ويتابع الأستاذ **الفحام** وصف سماحة نفس **الدكتور الكسم** ورحابة صدره فيقول:« إن هذه الكنوز الثمينة النادرة من الكتب التي اهتدى إليها بحسه السليم، ومعرفته الواسعة، ومقدرته على التنقير والتنقيب، وجمعها بالجهد الجاهد، كان يقدمها بنفس راضية إلى طلابه ومعارفه ليفيدوا منها، ولا يتلبَّث ولا يتوقَّف. ولطالما افتقد ما افتقد من هذه الأعلاق النفيسة، ولكنه ظل كالعهد به، لا يتوقف عن عطاء، دائباً في مسيرته، يعلم ويوجه ويفيد».

ولكن!

ولكن لماذا كان **الأستاذ الكسم** مقلاً جداً، بل بعيداً إلى حد بعيد عن الكتابة؟! هذا بالمقارنة مع ثقافته الموسوعية التي قل أن نجد لها نظيراً بين المفكرين العرب المعاصرين. الحقيقة أن هذا الموضوع محيرٌ فعلاً. وقد شغلني كثيراً عندما كنت طالباً في المرحلة الجامعية الأولى، حيث كأدت في البحث عن كتاب له ولكن عبثاً أحاول. ولقد استحيت أن أسأله لأني لم أجد الصيغة المناسبة للسؤال، فلست أدري حينها إن كان يكتب أم لا، وعلى رغم ذلك لم أستطع إلا أن أسأله . وكان ذلك عام ١٩٨٧م . فقلت له:

. لماذا لا تكتب؟

فأجاب: ولمن أكتب إذا لم يكن هناك من يقرأ؟

فقلت: نحن...نحن بحاجة إلى خبرتك ومعرفتك.

فقال: ما أريد أن أكتبه أقوله لكم...

فقلت: وغيرنا؟

فقال فيما معناه: العلم كالدواء لا يعطى إلا لمن يحتاجه، ومن يحتاجه يطلبه.

فقلت: أليس حراماً أن تظل كنوزك الثرة دفينة؟

فقال بعدما أومأ بيده إيماءته الشهيرة عند عارفيه: لا تهتم، من طلبها أعطيناه إياها، ومن سألنا أجبناه.

والحقَّ أنَّ هذا الجواب لم يشفِ غلتي فظل السؤال قائماً في مخيلتي، حتى قام الأستاذ **جورج صدقني** بترجمة الكتاب المهم **للأستاذ الكسم (البرهان في الفلسفة)** واطلعت على مقدمته التي طرح هذه المشكلة في جانب منها، فعدت إلى الأستاذ الكسم وسألته السؤال القديم ذاته:«لماذا لا تكتب؟»ولم يتغير الجواب.

ترى لماذا لا يكتب الأستاذ الكسم وهو«ذوالمعرفة العميقة بكل فلسفة»؟

الثقافة والكتابة:

إن الإجابة عن هذا السؤال تفرض غلينا الإجابة عن سؤال آخر سابق منطقياً على سؤالنا هذا وهو: هل من الضرورة أن يكون كل

مثقف وقارئ قادراً على الكتابة، بل على استنباط أفكار جديدة، أو لنقل على تجسيد آرائه كتابة؟ لا شك في أن الجواب سيكون بالنفي، لأنَّ ذلك ليس من وظائف الثقافة، فالكتابة ـ كما يقول **ابن خلدون**: ملكة شأنها شأن الملكات الإبداعية الأخرى، وما دور الثقافة فيها إلا الصقل والتنمية.

فهل هذا حال أستاذنا الكسم؟

حاشى وكلا، فهومقل، نعم، ولكنه ليس عديم الإنتاج البتة، وما القليل الذي قدَّمه إلا درٌر نفيسةٌ، متقنة الصَّوغ، تنمُّ عن فصاحةٍ رائعة، وحصافةٍ بارعة، وهذا يعني بالضرورة أنَّ ثمَّة عوامل أُخرى هي التي منعت الأستاذ **الكسم** من الكتابة. فما هي هذه العوامل؟

الفلسفة والتفلسف

يرى الأستاذ **جورج صدقني** أن الذين يتهمون الأستاذ **الكسم** بأنه«لا يكتب شيئاً، كأنما يريدون القول إنه ـ على رغم معرفته العميقة بكل فلسفة ـ لا يملك فلسفة خاصة به»فما مدى مصداقية هذا الاعتقاد إن وجد؟

إن المقولة الشائعة لدى معظم الناس، والتي تقول:«لكل امرئٍ فلسفته الخاصة» التي ربما ترجع إلى الفيلسوف الإيطالي **انطونيو جرامشي** حيث يقول« كلُّ إنسانٍ فيلسوف»هي مقولة صحيحة تماماً، لأنَّ الفلسفة في جملتها، ومهما اختلفت تعاريفها،

هي نظرةٌ إلى الوجود بمختلف صوره وأشكاله وتباينها، ولكلِّ إنسانٍ نظرته التي تتفق مع الآخرين ضمن حدود وتختلف عنهم من غيرما حدود (*).

أعتقد أن في هذا ما يقطع الشك باليقين، وبما لا يحتاج إلى مزيد من الإفصاح والإيضاح، ولكن لا بد أن نبين هنا أنه: صحيح أن كل إنسان فيلسوف، ولكن ليس كل إنسان متفلسفاً، لأن هذا المفهوم الثاني ينقلنا إلى حيز التأطير النظري وصهر الآراء والأفكار في بوتقة نظام واحد منسجمٍ ومتكامل، وهذا ما يتأت إلا للقليل في تاريخ البشرية، ونظرة عابرة إلى تاريخ الحضارة تكشف لنا بجلاء عن هذه الحقيقة، فالعلماء أوالشعراء أوالمؤرخون أوالفنانون وحدهم...أضعاف أضعاف الفلاسفة الذين نعرفهم، بل الروائيين وحدهم أوالشعراء وحدهم أوالعلماء وحدهم...في عصرنا الراهن وحده يفوق عددهم عدد الفلاسفة الذين نعرفهم بمرات، ولذلك لا يعاب **الأستاذ الكسم** إن لم يندرج بين هؤلاء الفلاسفة، ولا ينتقص ذلك من قيمته ومكانته شيئاً.

وللحقِّ والتَّاريخ فإن ما قدَّمه **الأستاذ الكسم**، وإن لم يشكل مذهباً فلسفياً كاملاً . ويعتقد **الأستاذ الكسم** أنَّ وقت المذاهب قد

(*) . ينبغي ألا يفهم من ذلك أننا نحمل مقولة جرامشي: كل إنسان فيلسوف. على أنَّ الفلسفة مجرد رأي أووجهة نظر، وإلا لكان من حقِّ النجار والدهان والعطَّار والطيَّان...أن يدَّعي أنَّه فيلسوف ويطالبنا بدراسة فكره وآرائه. إننا نفهم هذه المقولة على أنَّ كلَّ كلَّ إنسان يستند في أحوال حياته إلى قاع فلسفيٍّ ما.

ولى وانتهى في خضم هذا الإيغال في التخصص . إلا أنه قدم محور مذهب فلسفي، بل محوراً لكل مذهب فلسفي، هذا المحور الذي يتجلى في تبيانه معنى الحقيقة ووضعه« النهج النطقي الصارم والدقيق لقياسها» وإذا ما علمنا أن الحقيقة هي الغاية التي تشرئب الفلسفة إليها لما أمكننا إلا التسليم **للدكتور الكسم** بأنه قدم محوراً لكل مذهب فلسفي، لا مذهباً فلسفياً واحداً، وهذا في الحقيقة ما أثار إعجاب الغربيين به ودعاهم إلى تقريظه واحترامه.

أين من يقرأ؟

من **الجلي** إذن أن **الأستاذ الكسم** لم يبتعد عن الكتابة لعجز في المقدرات، ولا لعدم امتلاكه رؤية فلسفية خاصة، الأمر الذي يردنا إلى إجابته هو، التي يبين فيها سبب بعده عن الكتابة إذ قال: (لمن أكتب ولا يوجد من يقرأ؟) أو: (هل قرأ الناس ما كتبته من قبل حتى أكتب شيئاً جديداً؟)

الحقيقة وإن كان هذا الأمر مؤلماً حقاً، إلا أنه فيما أعتقد ليس المبرر الكافي لعدم الكتابة، إذ المعروف . وهذا ما ليس يفوت **الأستاذ الكسم** . أن ما لم يُقرأ الآن فلا بد أن يُقرأ غداً، وما لم يلتفت الناس إلى أهميته اليوم فلا بد أن تنجلي أهميته يوماً، وبالتالي فإن« **الشعور بعدم الجدوى**« لن يكون مُبرراً لأن ما لم يؤثر الآن فلا بد . إن كان أصيلاً . أن يفرض تأثيره في المستقبل.

مسئولية الكتابة

ويقدم لنا الأستاذ **جورج صدقني** في مقدمة ترجمته لكتاب *البرهان في الفلسفة* ما يعتقده سبباً لإقلال أستاذنا في الكتابة فيقول:« ولكن الأرجح أن إقلاله في الكتابة ناجم عن شعوره المفرط بمسئولية الكلمة شعراً مرهفاً جداً، استحال عنده إلى نوع من **وسواس الدقة** أو**تهيب الوقوع في الخطأ** وبالتالي إلى **التردد** أمام نقل الكلمة من الذهن إلى الورق. بل قل إلى نوع من **الرعب من الكتابة**.

ويعقب الأستاذ **صدقني** على ذلك قائلاً:« وهذا كله، على رغم آثاره السلبية، ليس عيباً على إطلاقه،بل هو. من وجه آخر . دليل ساطع على الصدق الذي يلتزم كل امرئ نذر نفسه راهباً للحقيقة، وكرس عمره للبحث عنها، ووقف جهده للارتقاء إلى استجلاء نورها البهي الغامر».

النزعة السقراطية

وأخيراً فإني أستطيع أن أسم **أستاذنا الكسم** بأنه فيلسوف يحيا أفكاره« والفيلسوف الذي يحيا أفكاره .كما يقول لنا **أستاذنا عادل العوا** . ويريد أن ينقل بصورة حية هذه الأفكار إلى أذهان معاصريه، فليس له إلا أن يحذو حذو معلم الفلسفة (**سقراط**) الذي لم يؤلف، ولم يكتب، وحتى لم يعلم تعليماً...وإنما كان إنساناً يلقى الناس في

كل مكان، ويحادثهم في أي زمان، ولذا غدا نموذج الفيلسوف الحي (مقدمات الفلسفة /ص ٤٦).

والحق أني ملت إلى هذا الرأي أوالاعتقاد لما لمسته من إيمان **الدكتور الكسم** بالحوار والاتصال في نقل الأفكار بصورتها الحية، الجلية، البعيدة عن اللبس والغموض... وهذا ما أبانه لي أكثر من مرة، وقد أوردنا حواراً مما دار بيننا حول هذه المسألة، يفصح بجلاء عن هذه الحقيقة، ولكن، وعلى رغم أن هذه ميزة أيضاً تحسب **للأستاذ الكسم**، إلا أنها لا تعفيه من نقل تراثه وفكره إلى صورة مسطورة، كيما تظل منهلاً ومرجعاً لنا وللأجيال القادمة.

كلمة أخيرة

صحيح أننا حاولنا استقصاء الأسباب التي وقفت وراء ابتعاد **أستاذنا الدكتور محمد بديع الكسم** عن الكتابة، مستبعدين الخاطئ منها، إلا أننا وبقدر ما كان قصدنا تبرير هذا الابتعاد عن الكتابة، فقد قصدنا أن نعاتب أستاذنا . عتاب التلميذ لأستاذه . إن جاز لنا ذلك على أنه حرمنا من بديع دره التي ما زلنا نتوق أن نراها.

ومهما يكن من أمر، فإن ما قدمه لنا، على قلته الكمية، ليس بالقليل كيفياً، ولأنه كذلك سمحنا لأنفسنا أن نتوجه بالعتاب إلى أستاذنا لأنه حرمنا من زيادة هذه النفائس، كيما تظل زاداً، لنا.

وتعميماً للفائدة فقد قمنا بجمع كل ما نشره **الأستاذ الكسم** من مقالات ومحاضرات ودراسات بين دفتي كتاب واحد صدر عن وزارة الثقافة بدمشق عان ١٩٩٤ بعنوان **بديع الكسم** ليصبح الكتاب الثاني له بعد **البرهان في الفلسفة**، وفيما يلي ثبت بما نشر للأستاذ **الكسم**:

١. ترجمة وتلخيص: التطور الخالق. لهنري برجسون . حوالي عام ١٩٤٥م. يدرس في قسم الفلسفة بجامعة دمشق ضمن كتاب: الفلسفة المعاصرة.

٢. ترجمة كتاب للشاعر الفرنسي **بول فاليري** (الخلق الفني) حوالي ١٩٤٥م. وقد نشرته في ذلك الحين دار الرواد.

٣. مقال بعنوان: العاطفة القومية بين مزايا الأمة وعيوبها. نشر في النصف الثاني من الأربعينات /حوالي ١٩٤٦م/على قسمين، لم نعثر إلا على القسم الأول الذي نشرته دار الطليعة في كتابها الذي جمعته تحت عنوان: دراسات في القومية . ١٩٦٠م.

٤. الإنسانية الصحيحة في القومية الصحيحة: مقال نشر في النصف الأول من الأربعينات، وقد قامت دار الطليعة بشره في الكتاب السابق ذكره.

٥. التربية الجمالية . مقال نشر في مجلة العلم الغربي . العدد ٤ . شباط ١٩٥٠م.

٦. رسالة الدكتوراه: بحث في فكرة البرهان في الميتافيزياء، طبعت في جنيف بالفرنسية عان ١٩٥٨م، وأُعيدطبعها في باريس بالفرنسية أيضاً عام ١٩٥٩م، تحت عنوان: فكرة البرهان في الميتافيزياء. وترجم أخيراً إلى العربية تحت عنوان البرهان في الفلسفة بإصدار وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٩١م.

٧. دور الفلسفة في توحيد الفكر العربي . مجلة مرآة العلوم الاجتماعية . القاهرة . ١٩٥٩م.

٨. الثقافة القومية والثقافة الإنسانية . محاضرات الموسم الثقافي . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٦٠م.

٩. الشرق والغرب في فلسفة رينيه جينون . مجلة الثقافة . دمشق . ١٩٦٠م.

١٠. الحقيقة الفلسفية . المحاضرات العامة . جامعة دمشق . ١٩٦١م.

١١. طاغور الفيلسوف . في« طاغور في ذكراه المئوية» . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٦١ م.

١٢. مفهوم الوطنية في فلسفة فيشته . مجلة الثقافة . دمشق . ١٩٦١م.

١٣. الشعب وحرية الفرد في فلسفة هيجل . مجلة الثقافة . دمشق . ١٩٦١م.

١٤. حول أزمة الإنسان الحديث . مجلة الثقافة . دمشق .١٩٦١م.

١٥. النزعة الإنسانية . مجلة الثقافة . دمشق . ١٩٦١م.

١٦. الغاية والوسيلة . مجلة الثقافة . دمشق . ١٩٦٥م.

١٧. من خصائص التفكير . مجلة الثقافة . دمشق .١٩٦٥م.

١٨. الإنسان حيوان ناطق . مجلة المعرفة . دمشق . ١٩٦٧م.

١٩.الحرية أساساً. مجلة المعرفة. دمشق. ١٩٦٧م.

٢٠.الثورة الثقافية. محاضرة في جامعة الجزائر. مجلة المجاهد. ١٩٧٠م.

٢١.علاقة الجامعة بالمجتمع: تعليق نشر في مجلة الأصالة. وزارة التعليم والشؤون الدينية. الجزائر. العدد الخامس.١٩٧١م.

٢٢.ازدواج الدلالة في الثقافة العربية. مجلة المعرفة. ١٩٧٤م.

٢٣.لغة الفلسفة. محاضرة أُلقيت في قاعة المحاضات بمكتبة الأسد يوم السبت ١٩٩٣/٥/٩م. بدعوة من مجمع اللغة العربية بدمشق.

دمشق في ١٩٩٢/٥/٣م.

حَسَنُ البُحَيْرِي

عَبقَرِيَّةٌ مُغتَرِبَةٌ(*)

(*) . نشر هذا الفصل على قسمين في صحيفة الثقافة الأسبوعية . دمشق . العدد (٢٨) . في ١٠/١٠/١٩٩٢م. والعدد (٢٩) في ١٧/١٠/١٩٩٢م.

لعلَّ كثيرين لا يعرفون من هو**حسن البحيري**، ولكن من يعرفه لا بد أن يعشقه، أقول يعشقه وأنا أدرك وأقصد تماماً ما تشير إليه هذه اللفظة من دلالات ومعان...إنَّه عبقرية فذة، شاعر متفرد بخصائص ترقى به إلى مصاف كبار الشعراء، بل هو كذلك حقاً . ولعل هذا قدر العظماء والسابقين زمانهم . يحيا غريباً بين أهله، ولا يقدر حقَّ قدره.

على أنَّ كل من قرأ شعره قراءة متبصر خبير، لن يجد مناصاً من أن يقف له إجلالاً وإكباراً، وينظر إليه بعين الإعجاب والتقدير، ويزداد هذا الإعجاب كلما ازداد قرباً من **البحيري**، لما تتسم به شخصيته من سمات ومزايا محببة تجعله ينفذ إلى شغاف القلوب بسرعة بالغة.

عبقرية البحيري

ولد **حسن البحيري** يتيماً، في مدينة حيفا، أرجح الظن عام ١٩٢١ للميلاد، ونشأ فيها ويفع، لكنه نشأة بائسة يائسة، ملؤها الإدقاع والحرمان، الأمر الذي ألزمه قطع مسيرته الدراسية وهي في

مهدها،من الصف الرابع الابتدائي، لتأمين لقمة العيش له ولأمه، إذ لا مورد ولا معيل إلا الله، «وكم دميت يداه ورجلاه وهو يركض خلف لقمة العيش السوداء هذه . حتى في أثناء الدراسة . في مطاردةٍ عبر الشوارع والأزقة...ونبشاً في مزبلة المدينة... وكم من الليالي نامها على القش ملتحفاً قطعة من الخيش»[1]

وفي ظلِّ هذه النشأة القاسية التي تأخذ الإنسان من ذاته، وتقوده إلى اليأس والإحباط، نمت عبقرية **البحيري**، وصقلت، وأُغنيت، فما دلائل ذلك، وكيف كان ؟

أولاً: في التحصيل

إنَّ انقطاع **البحيريُّ** عن الدراسة في مراحلها الأولى، إلى جانب ما كان يعانيه من فاقة وعوز.. لم يمنعه من أن يكأد غي قدِّ شخصيَّته المبدعة الخلاقة، والسهر على متابعة القراءة والتحصيل بجهد فردي محض، «لا يد فضلٍ فيه لأحدٍ البتَّة» [2] « فَثقَّف نفسه بنفسه في اللغتين العربية والإنجليزية، فقد صحب الكتاب، بل لازمه... ليستغل كلَّ استراحة للقراءة والثقافة، حتَّى استوعب أغلب كتب التراث التي عرفها وأبناءُ جيله... هضم التراث بعد دراسة

(1) . هارون هاشم رشيد: حيفا والبحيري؛مدينة وشاعر . مطبعة دار الحياة . دمشق . ط١ .١٩٧٥م . ص٧٥.

(2) . د. صبحي محمد عبيد: حسن البحيري؛ الشاعر الذي انتصرت فيه العبقرية على الحرمان . رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة الجزائر عام ١٩٨٥م، نشر ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر .١٩٩١م . ص ٦٣.

متأنية، فصار موسوعيَّ الثقافة، وغدا صنواً لكبار أدباء العربية القدماء»[٣] بل غدا «أمير اللغة العربية الفصيحة بياناً وبلاغةً»[٤] قلما تجد من يضارعه دراية بمفردات اللغة العربية ودلالاتها وقواعد صرفها واشتقاقها، ونحوها.

إنَّ مثل هذا التحصيل وما أثمره من نتائج، بالمقارنة مع الظروف التي مرَّ بها الشاعر؛ من عمل في أثناء الدراسة، والانتقال من حضن المدرسة الدافئ وهو في طور البناء الأولي، إلى صلابة العمل وقساوته ومدته الطويلة، لدليلٌ ساطعٌ على ما يمتلكه البحيريُّ من إرادة قوية، وموهبة فذَّة، وذكاء حادٍّ. والحقُّ أنَّ من يقرأ سيرة **البحيريُّ**، أو يسمعها منه، ليندهش حقَّاً مما أنجزه، ولا أعتقد أنَّ أحداً غيره عاش في مثل ظروفه، حقَّق بعض ما حقَّقه، الأمر الذي يجعله ظاهرة فذَّة فريدة، تستحقُّ الوقوف عندها طويلاً.

ثانياً: نبوغه المبكر

إنَّ ما وصل إليه **البحيريُّ** من مكانة رفيعة في الشعر، وفِقْه اللغة وعلومها، لم يكن نتيجةً لدأبه في التحصيل بقدر ما كان تحصيله الموسوعيُّ هذا ثمرةً لنبوغه، وحدَّة ذكائه التي ظهرت مبكرةً لديه، فلقد «أبدى في المدرسة نباهة . وهو في الصف الأول . أنبأت عن

---

(3) . اسماعيل مروة: البحيري؛ موقف ورسالة . دار البشائر . دمشق .١٩٩١م . ص٤٣/٤٤ .

(4) . عبد الهادي البكار: مقدمة مجموعة لعيني بلادي الشعرية، للشاعر حسن البحيري . مطبعة الصباح . دمشق .١٩٩١م . ص ٢٥ .

حدَّة ذكائه، ولفتت إليه الأنظار، على الرغم من أنَّه كان قليل الانتظام في الدوام، لكثرة ما كانت تكلفه أمُّه أو زوجها بأعمال تعيقه عن الدراسة... وتضيع عليه أيامها... ومع ذلك كله فقد برز الصبيُّ ونجح إلى الصف الثاني بتفوق، وأثنى عليه مدرِّسوه»[٥].

ومما أورده الأستاذ **هارون هاشم رشيد** وهو من معاصري شاعرنا . في كتابه ***حيفا والبحيريّ*** من دلائل النبوغ المبكر لدى **البحيريّ**، حادثة تنمُّ عن ألمعيَّةٍ مبدعة، وقريحة متَّقدة، فقد كان الأستاذ **عارف حجازي** . مدرِّس اللغة العربية . يشرح درس أجواد العرب في الجاهلية . وكان **البحيريُّ** في الصف الثالث الابتدائي . وعندما وصل إلى البيت التالي وقرأه:

يجود بالنَّفسِ إذْ ضنَّ البخيلُ بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود[٦]

رفع **البحيريُّ** إصبعه وقال:

. أستاذ... في هذا الشعر خطأ.

ولما سأله الأستاذ عن الخطأ وموضعه قال:

. الخطأ في قول الشاعر: «يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيل بها» وكان عليه أن يقول: «يجود بالنفس إذ ضنَّ الكريم بها» لأنَّ من طبع

(5) . هارون هاشم رشيد . ص ٧٥.

(6) . عبد الفتاح صبري بك وعمر علي بك: القراءة الرشيدة . الجزء الثالث . ط٨ . ١٩٢٦م . نشر نجيب متري صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر . ص ٨٨/٩٠ . (عن المرجع).

البخيل أن يبخل بكل شيء، فكيف بنفسه ؟! ومن طبع الكريم أن يجود بكل شيء إلاَّ بنفسه، وأن يجود الإنسان بما يبخل به حتى الكرماء أنفسهم هوالأمر العظيم المدهش» [٧]

ويعقِّب الدكتور **صبحي عبيد** على هذه الحادثة قائلاً: «إنَّ هذا النَّقد الصادر عن صبيٍّ في مثل هذا العمر يدعوإلى الإعجاب، وقد قصدت من هذا الذي أوردت إلى تبيان ذكاء **البحيريِّ**، هذا الذكاء الفطريِّ الذي يتدفَّق من الشاعر متحدِّياً ظروف التَّعاسة التي عاشها، كما يتدفَّق النَّبع من بين طيَّات الصخور»[٨]

ثالثاً: الإبداع المبكر

أصدر **البحيريُّ** مجموعته الشعريَّة الأولى: الأصائل والأسحار وهوفي الثانية والعشرين من عمره، أي عام ١٩٤٣م، ومعظم قصائد هذه المجموعة كتبت عام ١٩٤١م، وكذلك أمر مجموعته الثانية: أفراح الرَّبيع التي صدرت عام ١٩٤٤م، ولكنَّ مجموعته الثالثة: ابتسام الضُّحى، والتي صدرت عام ١٩٤٦م، فقد حوت قصائد كتبها الشاعر عام ١٩٣٦م، أي عندما كان عمره خمسة عشر عاماً، والحقُّ أنَّها قصائد بديعة، لا تقلُّ جودةً وحُسنَ سبكٍ عمَّا تلاها من قصائد، حتى قال الأستاذ **صبحي عبيد**: «من المدهش حقَّاً أن نقرأ قصائد

---

(7) . هارون هاشم رشيد: م.س . الحادثة من ص٧٩ حتى ٨١ . وقد أوردها الدكتور صبحي محمد عبيد مرويَّة عن لسان البحيري ذاته . ص٦٢ .

(8) . د. صبحي محمد عبيد: م.س . ص ٦٢ .

تتميز بقيمتها وكلاسيكيتها قالها عام ١٩٣٦م.حين لم يكن عمره يزيد عن خمسة عشر عاماً»[٩] يقول في (لهب الشَّباب) مثلاً:[١٠]

فما العزُّ إلاَّ حيث آطامنا بدت
تشاطر أقمار الليالي سناءها

وما المجد إلاَّ ما نشـيد ونبتني
ونحن المعالي قد جلونا رواءها

وفخرُ الثَّرى أنَّا وطئناه رفعةً
وفخر الثُّريَّا أنْ علونا سماءها

تسالمنا الأيَّام خشية بأسنا
فَتُلقي لنا أَيدي الليالي ولاءها

يُدني لنا الدَّهر المنى وهوصاغرٌ
وأنفسنا منها تنال اشتهاءها

---

(9) . م.س . ص٢١٦ .

(10) . حسن البحيري: ابتسام الضحى . مطبعة الصباح . دمشق ط٢ . ١٩٩٠م . ص٤٩/٥٠.

قد يقول قائل: إنَّ الإبداع غالباً ما يلوح أوينجلي في سنٍّ مبكرة، والحقُّ أنَّ هذا القول لا جدال فيه، ولكن في حالةٍ مثل حالة **البحيريِّ** الذي حُرم لا التعليم وحده، بل الحدَّ الأدنى من الكفاف، فإنَّ الأمر مختلف.

إنَّ **البحيريَّ** إذ قال شعراً وهو في هذه السنِّ المبكرة جدَّاً، في ظلِّ مختلف ظروف المعاناة والحرمان، والبعد عن التعليم، ولا سيَّما أَيضاً أَنَّه كما روى قد «أَصدر مجموعاته الثلاث الأُولى وهو لا يعرف شيئاً عن أَبحر الخليل وتفعيلاتها»[11] لدليلٌ ساطعٌ ناصعٌ على الموهبة الفذَّة التي خُصَّ بها.

وما الشِّعر إلاَّ حكمةٌ وعواطفٌ
يُسربلها وحيٌ فتنساب عطرا

فمن لم يكن من مهده ذا قريحةٍ
فلن يجعلَ الأحجارَ بالكدِّ دُرَّا

رابعاً: في أسلوبه الشعريِّ

إنَّ الأمر الغريب الذي نجده عند **البحيريّ**، وقلما نجده عند غيره من الشعراء ـ على تباين ظروفه عنهم قاطبة ـ هو تلك السَّويَّة من

(11) . د. صبحي محمد عبيد: م.س . ص٦٢ .

الإتقان والبلاغة وأساليب البيان والتصوير، والتي حافظت على وتائر جدٍّ متقاربة منذ بداية كتابته الشِّعر وحتَّى الآن، وكأنَّ كلَّ الخبرات والتجارب التي اكتسبها **البحيريُّ** لم ترق إلى مصاف سموألق عبقريته التي تجلَّت في مرحلة مبكرة، حتَّى تستطيع أن تزيد إلى ألقها ألقاً.

ونحن إذ نقول ذلك لا نقوله اعتباطاً ولا بدافع ميلٍ أوهوًى أبداً، وإنما هوالحقُّ الذي لا مراء فيه، ولا أدلَّ على ذلك من أن نقارن بين أشعاره الأولى، وأشعاره الحالية، وما بينهما من أشعار حوتها خمس عشرة مجموعة شعريَّة، وأعتقد أنَّ إحالة القارئ إلى شعر **البحيريّ** خيرُ من إيراد بضع أبيات ربَّما لن تفي بالغرض، لأنَّنا لا نتحدَّث عن قصيدة أومجموعة قصائد، وإنَّما نتحدَّث عن شعره كلِّه تقريباً، وعلى رغم ذلك فإنَّنا سنورد هذه الأبيات لنقارنها ـ كنموذج ـ مع الأبيات التي أوردناها قبل قليل.

يقول في (رسالة في عيد) هذه القصيدة التي كتبها في كانون الثاني /يناير ـ١٩٨٨م. في تصوير «الثورة الفلسطينية العارمة، التي سمُّوها انتفاضةً خطأً غير مقصود...»[١٢].

ثاروا وملُّ وجودهم في أرضهم غَضَبٌ مَرِيدُ
حتَّى لكاد يهبُّ من بطن الثَّرى الميت الفقيدُ
ولكاد في الرَّحم الجنينُ يخفُّ والطفل الوليدُ

(12) ـ حسن البحيري: رسالة في عيد ـ مطبعة الصباح ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠م ـ ص١١ ـ

ولكاد ما قد غاب في الأصلاب يحفزه النُّهودُ
ليذود عن أرضٍ ويبلغ من عدوٍ ما يريد[١٣]

أمَّا عن خصائص بنيانيه الشِّعريِّ شكلاً ومضموناً، فما أكثر من تناوله وما أبدع التَّقاريظ التي حظي بها، فالحقُّ أنَّ شاعرنا، كأنما جلى ألفاظه سحراً، وضمَّن بيانه عطراً،وسلكه في سمط البهاء والجلال، ووشَّاه ببرد النَّقاء والجمال، حتَّى لتشعر وأنت تنتقل من بيت إلى بيت كأنَّك في روضةٍ غنَّاء، بديعة الرُّاء، تضوع عطراً، تشعُّ سحراً، وترفدها موسيقى عذبةٌ، تستمدُّ، سحر وقعها من التآلف والتناغم بين شفافيَّة اللفظ وعذوبة المعنى، وحسن اختيار الأوزان.والحقُّ أنِّي في كلِّ ما قرأت عن **البحيريِّ** لم أجد من أظهر مثلباً واحداً، أو عيباً، في شعر **البحيريِّ**،على أنَّ ذلك ليس يعني أنَّ شعره المثال والكمال، أو أنه خُلو من أيِّ عيبٍ، ولكنَّ معظم شعره وعمومه، يستحقُّ فعلاً التقاريظ الكثيرة التي خصَّه بها النُّقَّادُ والباحثون.

الغريب بين أهله

على رغم أنَّه قُلِّد بوسام (القدس) أوَّل أوسمة الدولة الفلسطينيَّة، وعلى رغم كثير من الكتب التي عُنيت . على التَّخصيص . بشعره وشخصه، بالبحث والدراسة، إلاَّ أَنَّ شاعرنا، وكما حُرِمَ في مطلع

(13) . م.س . ص٣٠/٣١ .

حياته من كلِّ ما قد يدخل إلى القلب إشراقة أمل، كذلك لم يلق حتى الآن من أُولي الأمر والشَّأن والعزم، ما يستحقُّ من عناية واهتمام، بل أقلَّهما، ولا سيَّما في نشر تراثه الشِّعريِّ الذي وقفه للوطن، لفلسطين، حتَّى لتكاد لا تجد مكاناً في شعره إلاَّ لفلسطين، وإن كان فللعروبة...فلسطين هي العين التي يرى بها كلَّ شيء؛ إن خاطب الورد خاطبه باسم فلسطين، ورآه بعين فلسطين، ورأى فلسطين فيه، وكذلك النَّهر والفنُّ والحبُّ والجمال....

وليس هذا فحسب، فإنَّك إذا دخلتَ بيته وجدتَ كلَّ شيء ينطق باسم فلسطين... الجدار والباب والنافذة... والمقعد والطاولة...بل كلَّ شيء «لقد حوَّل دارته الدمشقيَّة . كما يقول الأستاذ **عبد الهادي البَّكار** . إلى متحف أو زاخرٍ بالكثير من الأشياء الفلسطينيَّة، من صوَرٍ، ولوحاتٍ، ووثائقَ، وملابس تراثيَّة شعبيَّة (فولكلوريَّة) فلسطينيَّة، فإذا بهذا البيت الدمشقيِّ (جزءٌ من فلسطين . حيٌّ) يعيش داخل صدر دمشق، وكأنَّه القلب من هذا الصدر»[١٤] فأيُّ بيت فيه مثل ما في هذا البيت ؟

والأكثر من ذلك . وهذا ما سمعته منه، وسمعه كثيرون غيري (وكأنَّه يقيمنا شهداء على هذه الوصيَّة) . فقد أوصى بأن يُوقَفَ بيته هذا . بعد وفاته، أطال الله عمره . مركزاً ثقافيَّاً باسم (بيت فلسطين:

(14) . مقدِّمة (لعيني بلادي) . ص٣٤.

مركز الشاعر **حسن البحيريّ** الثَّقافي)، وأن تخصص فيه قاعة باسم (صالة حيفا) للأمسيات الشعريَّة والمعارض الفنيَّة والمحاضرات، وقاعة أُخرى باسم (قاعة الكرمل) للمطالعة والتأليف، وبعد هذا العطاء الذي ما (لوافره مزيد) يكتب ويقول:

هـذا عطائي . على جهد المقلِّ . لكم
أبناء قومي ولم أخصص به أحدا
كالعشب تخضلُّ حول القبر نضرته
وليس يعرف من في لحده رقدا[15]

فما الذي قدَّمناه **للبحيريِّ** كيلا نشعره بالغربة سوى تعميق جرح هذه الغربة وتكريسها ؟!

والمدهش حقَّاً أنَّ شاعرنا قد أدرك بحدسه المبدع وإحساسه الملهم، مذ كان يافعاً، وفي أشعاره الأولى، أنَّه سيعيش غريباً، ولن يُقَدَّرَ حقَّ قدره، وكأنَّه كان يقرأ صفحة المستقبل؛ هذه الأشعار نجدها في مجموعته الأولى (الأصائل والأسحار) كما نجد أمثالها من مرارة الشُّعور بأسى الغربة في مجموعات أُخرى.

والحقُّ أنَّ تسلسلها في المجموعة . وهو يقيناً غير مقصود . يدعو إلى الدَّهشة أيضاً، إذ يزداد هذا التعبير تعمُّقاً وتجذُّراً في اللاحق على السَّبق، وكأنَّه ينتقل بنا لا شعورياً من أدنى المستويات إلى أعلاها،

(15) . قرأت هذين البيتين في مخطوطات الشاعر.

فيبدأ أوَّل ما يبدأ بالحبيب وما أورثه إياه من شعورٍ مباكرٍ بالوحدة والغربة، فيقول ـ وإن كانت الصورة شائعة:

لي حبيبٌ صـدَّ عنِّي وتولَّى وقسـا
بات في دبيا الأماني ناعماً مستأنسا
وأنا والوجد دائي لا أرى لي مؤنسا[١٦]

ثـمَّ لينتقل إلى صروف الزَّمان ونوائبه التي قست عليه أيما قسوةٍ، وكان يحسبها في كلِّ مرَّة قد انتهت، ولكنَّها لا تلبث أن تعود، فيتجمَّل بالصِّبر، ويسكت عن معاتبة الزَّمان:

لئن عاد الزَّمان وشدَّ حربي
وكنت حسبته أنهى وجازى!
فكم أحقدته بجميل صبري
وطول تحمُّلي نُوَبَاً لزازا
وأَسكَتُّ عن معاتبتي زماناً
عنيداً ما أطقت له بِرازا[١٧]

ولكنَّ صروف الزَّمان لا تنفكُّ تعاوده، وتزداد قساوة، حتَّى حَسِبَ أنَّ الزمان قد خاصمه وأولاه اربداداً، على رغم أنَّ شاعرنا لم يقابله إلاَّ بالصبر والرِّضى؛ وكأنَّه يعوِّد نفسه على تحمُّل الوحدة والغربة:

---

(16) . حسن البحيري: الأصائل والأسحار . مطبعة الصباح . دمشق . ط٢ . ١٩٩٠م . ص٢٤.
(17) . م.س . ص٣٦.

وخاصمني الزَّمان وكان عوني
ووجه الدَّهر أولاني اربـدادا
وما أبقــت الأيام منِّي
طِـرافاً . يجتنيـها . أوتلادا
تولَّى وهو يعـلـم أنَّ ما بي
مِنَ الأدواء يتَّقد اتـقادا
بذلت له فؤاد هـوًى غريرٍ
فأبلى بالأسى المضني الفؤادا[18]

فما كان من شاعرنا إلاَّ أن وقف أمام منابع عيون نهر الجالود التي رأى ماءها أدمعاً، وكأنَّها قد هزَّها ما لاقاه وسيلاقيه من قساوة ومعاناة فبكت، ليخاطب هذه العيون قائلاً:

أم أنت يا أعيناً فاضت مدامعها
علىالحصى كجوى الأحشاء صفَّاقِ
أشجاك هذا الذي لاقيت من زَمَنٍ
قاسٍ، وما أنا من تصـريفه لاقِ[19]

ولكنَّ هذه التلميحات المضمَّنة دلالات واضحة على شعور **البحيريِّ** بالوحدة والغربة، في ظلِّ سطوة الزَّمان وقسوتة، لا تلبث أن تنقلب إلى إفصاحٍ صريحٍ يجلوه الحدس المبدع الذي يتجاوز حاضر

(18) . م.س . ص٣٨/٣٩.
(19) م.س . ص٧٠.

الزَّمان . بقبسٍ من الإلهام الإلهي . ليقرأ صفحة المستقبل على مرارته من غيرما تهيُّب:

وما دمــتُ أدري أنَّه الدَّهر جاهداً
يفضِّل جهل الجاهلين على علمي
فما نفع عتبي والزَّمــان كما أرى
وهل هــزَّه يوماً عتابيَ أولومي؟
لئن لم يُقَـدِّرني زمــاني وأهـله
وأسرف دهري في عقوقي وفي ظلمي
ولم تُرني الأيَّام ســاعة راحـةٍ
فحاربني أمســي وضافــره يومي
سينصـفني الآتي بما أنا أهـلهُ
وذاك عزائي في مصــائبيَ الدُّهم !![٢٠]

هذه هي العبقرية وقد وعت ذاتها، وأدركت أنَّها سابقة زمانها، مثله في ذلك مثل أبي حيَّان التَّوحيدي الذي كان فنَّاناً غريباً بين أهل عصره، وكان يعاني وحشة من يرتفع عن أهل زمانه ويتقدم عليهم»[٢١]

وتتعمق جراح أسى الغربة ومرارتها، وتتقد جذوتها في صدر شاعرنا، لما لاقاه من إجحاف بحقِّه، وتنكر لجميل صنعه، فيقف

(20) . م.س . ص ٩٩/١٠٠.
(21) . عزت السيد أحمد: التوحيدي مؤسساً لعلم الجمال العربي . مجلة المعرفة . دمشق . العدد ٣٣٤ . ١٩٩١م . ص٦٩.

حائراً لا يدري إلى من يبثُّ شكواه، حتَّى كان يوماً يعانق الجمال، ويحلِّق في سحر عوالمه «في بساتين البهجة بعكَّا . عام١٩٤٥م» وإذ بهذا الشعور بالغربة ينتزعه من لذائذ استمتاعه بالجمال، فيقول:

لكنَّ روحيَ في هذا الجـمال وما
أضفى على الكـون من حسنٍ وإحسانِ
ضلَّت في ســروبٍ من تغرُّبها
أسـداف همٍّ كجنح الليل غيــمانِ
فما جُزِيتُ بغير الضَّــغن موجدةً
ولم أُوفَّ سـوى أَبراد نســيان
فعشـتُ من وحدتي في عابسات دجًى
وهمتُ من غُربــتي في تيه حرمانِ
ســقيتهم في كؤوس الحبِّ صافيةً
من عاطرات ســلافي غير منَّانِ
فجرَّعــوني كؤوس المرِّ طافـحةً
وأَوسعوني عليــها جحد كفرانِ
أَحيا جــريح الأَماني مفرداً وَحِـدَاً
بغربة الرُّوح في أَهــلي وأَوطاني[٢٢]

(22) . حسن البحيري : لفلسطين أُغنِّي مطبعة دار الحياة . دمشق . ط١ .١٩٧٩م . ص١٢١/١٢٣/١٢٨.

وتمضي السُّنون سراعاً تباعاً، ولا شيء يتغيَّر، فيتحوَّل شعوره بالغربة إلى هاجس، وخوف من لقاء ذويه، وأهليه، خشية أَن يقال: (من هذا الغريب ؟) بل هذا ما حدث فعلاً عندما دعاه أحد صحبه إلى اجتماع _ عندما كان بتونس . في مقرِّ الجامعة العربية، عام ١٩٨٥م، . مع أَبناء قومه، بعد أَن تجاهله معظمهم، على جلالة قدره، فقال: [٢٣]

حبيبُ أُخـوَّةٍ، ووفيُّ عهدٍ لدفق هواه في صدري وجيبُ

دعاني كي أَكونَ له رفيقاً إلى جمعٍ له أَمرٌ عجيبُ

فقومي فيه أَقربهم بعيدٌ عن القربى وأبعدهم قريبُ

وما لي بين أَظـهرهم مكانٌ ولا لي من تشاورهم نصيبُ

فقلت له وفي عمقي جراحٌ لها في كلِّ جارحةٍ دبيبُ:

إذا أَنا صرت في قومي جليسـاً

أَخـاف يقال: من هذا الغريبُ؟!

لا شكَّ في أَنَّ الغربة قاسية على المرء، صعبة. ولا شكَّ في أَنَّها تترك في القلب حسرة وحزناً وألماً، هذه غربة الجسد، فكيف لوكانت

(23) . حسن البحيري: جنة الورد . دار المعارف للطباعة . دمشق . ط١ .١٩٨٩م . ص٦٤/٦٥.

غربة الرُّوح ؟! بل كيف لوكانتا معاً ؟! إنَّها بالضرورة أقسى وأعتى، وأشدُّ إيلاماً وإحزاناً، لأنَّها تشرخ النفس شرخاً، وتضعها أَمام مفترق الخيارات الأَشدِّ مرارة؛ الضياع والتشتت والفصام: خيارات ليس بينها مفاضلة، فكلُّها مُرَّة، ذلك أَنَّ تنكُّر الأَهل للمرء من غيرما حقٍّ، وظلمهم له، لا يَعدِله ظلم البتة مهما قسا، أو كما قال **طرفة بن العبد**:

وظلمُ ذوي القربى أَشــدُّ مضاضةً
على المرء من وقع الحسام المهنَّد

وعلى رغم ذلك، فإنَّ صدر شاعرنا أَرحب وأَوسع بكثير ممَّا نتصوَّر أَونتخيَّل، ولأَنَّ (الكريم لا يستطيع إلاَّ أن يكون كريماً) لم يجد **البحيريّ** أَمامه إلاَّ الصَّفح والغفران، على رغم كلِّ ما كان، ولتظلَّ شخصيَّته متَّزنة متوازنة فيقول: [٢٤]

هم عمَّقوا بالمدى جرح الأسى وأنا
أَوليتهم في الأَسى صفحي وغفراني

أَقوال في البحيريّ

د. حسام الخطيب:

حسن البحيريُّ يتحدَّى أَسلحتي النقديَّة، بشعره وإنسانيَّته، لأَنَّه يخرج عن المدى المجدي لهذه الأَسلحة، حسبي أن أَقرأه من خلال

(24) . لفلسطسن أُغنِّي . م.س ص١٢٤.

مسعاي اللاهث وراء لحظة صفاء، ونادراً ما لا أَجدها في شعره وفي شخصه؛ عرفت في حياتي أُدباء كثيرين وفنَّانين مبدعين. ولكن مثل هذا التَّطابق التَّام بين الإنسان والمبْدَع لم أجده إلاَّ عند **حسن البحيريِّ**. هكذا تصوَّرنا الأَديب الشاعر منذ الصغر: كتلة من الإحساس، موكباً من الصَّفاء، شعلة من إخلاص ووفاء، قلباً مبسوطاً مثل وردة مفتِّحة، نفساً رضيَّة مثل أُمسية متوسِّطيَّة. وكنَّا نعتقد أَنَّ **جوثه** هو الأُنموذج الوحيد. وحين كبرنا أَدركنا أَنَّ العرب قدَّموا بعض نماذج، وكان **حسن البحيريُّ** واحداً من أَكثرها إشعاعاً. وفي عصرِ تتباعد فيه شخصيَّة الرَّجُل عن شخصيَّة إبداعه حتَّى ليتمنَّى المرء أَحياناً أَلاَّ يتعرَّف على أَصحاب بعض الإبداعات،يبدو لي **حسن البحيريُّ** واحةَ تطابقٍ بين الفنِّ والفنَّان.[٢٥]

هارون هاشم رشيد

(آ) . هذا الشاعر **البحيريُّ**، من أَيِّ نبع نهل ؟ من أَيِّ ورد رشف ؟ في أَيِّ سماء حلَّق ؟ بأيِّ وادٍ من أَودية الجنِّ طاف ؟...كثيراً ما ألحَّت علينا هذه التساؤلات، ونحن في مطلع صبانا في الأَربعينات،نحتفل بجماعة (أبُّولو) وشعراء المهجر، **وإبراهيم ناجي، وعلي محمود طه**...وقد كنَّا نتخاطف دواوين **علي طه**، ونتغنَّى بها، ونستظهرها، حتَّى طلع علينا **البحيريُّ** بديوانه الأول: الأَصائل

(25) . اسماعيل مَرْوَة . م.س . المقدمة . ص٨.

والأسحار، فسحرنا وشدَّنا، وأَخذ بمجامع قلبنا، وسمَّيناه **علي محمود طه** فلسطين.[٢٦]

(ب) . إنَّه قارئ للقديم والحديث، ذائبٌ فيهما، طالعٌ منهما بوجهه الجديد، وجبهته المشرقة الفريدة...فهوكيان منفردٌ في حدِّ ذاته، أَصيل النغم، عزيز الجرس، شجيُّ النَّبرة. فيه **البحتريُّ، والمتنبِّي، وابن المعتزِّ، وابن حمديس، وعلي محمود طه، والشَّابي، وأحمد شوقي، وأحمد رامي**... يمتزج فيه القديم بالحديث... وتتلاقى في أعماقه جماعة (أَبُّولو) بجماعة (المهجر)، ولكن تلاقي الرَّوافد في النهر الكبير... [٢٧]

د. ناصر الدِّين الأسد

إنَّ شاعرنا **البحيريِّ** ذونسيج متين محكم، وأُسلوب مشرق سلس، وألفاظ زاهية بظلالها وإيحاءاتها الشعرية، ويبدو أنَّ اطلاعه على تراثنا القديم والحديث اطلاع عميق متثبِّت أَورثه هذا البيان المشرق الأخَّاذ.[٢٨]

عبد الهادي البكَّار

هذا الشاعر، من المؤسف أَن يكون كثير من جمهور الشعر والأدب العربي المعاصر ما يزالون يجهلون حتَّى الآن اسمه، وهو الذي

---

(26) . من مقدمة هارون هاشم رشيد لمجموعة (حيفا في سواد العيون) للشاعر البحيري . دمشق . ط١ .١٩٧٣م . ص١٧/١٨.

(27) . حيفا والبحيري . م.س ص٣٧٣.

(28) . د. ناصر الدين الأسد: محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن . مطبعة لجنة البيان العربي . القاهرة . ١٩٦١م . ص١٨٥.

تعلمنا في بلاد الشَّام، ومنذ عام النَّكبة الفلسطينية، كيف نحوِّل حزننا على ضياع فلسطين إلى غضب، كما تعلم منه أبناء فلسطين المجيدة كيف يحوِّلون غضبهم إلى ثورة...[٢٩]

د. نسيب نشاوي

البحيريُّ مشهود له بالفصاحة والبلاغة، وهو حجَّة في اللغة العربية وآدابها، ويعرف ذلك عنه من التقاه أو قرأ دواوينه وترجماته.[٣٠]

إسماعيل مَروَة

لا شكَّ في أَنَّ **البحيريَّ** يحتلُّ مكان الصَّدارة في الشعر الفلسطيني المعاصر، وإن حاول بعض النُّقَّاد تجاهله وإبعاد اسمه عن الساحة الأَدبيَّة، فإنَّ الأيَّام القادمة ستحمل اسم **البحيريّ**، وستضعه في مكانته المناسبة على الرغم ممن تجاهلوه وأَبعدوا أَعماله وأَشعاره...[٣١]

صبري يوسف دياب

في أثناء مطالعتي لشعراء فلسطين استوقفني شاعر جدير بأَن يتوَّج أَميراً على عرش الشعر العربي الفلسطيني المتميز، هذا الشاعر هو **حسن البحيريُّ**، ابن حيفا وشاعرها الذي جاء على الرغم من

---

(29) . مقدمة لعيني بلادي . م.س . ص٢٦.

(30) . صبري يوسف دياب: الوطنية في شعر حسن البحيري . دار المغارف للطباعة . الجزائر . ط١ . ١٩٨٥م . من مقدمة الكتاب . ص١٠.

(31) . اسماعيل مروة: م.س . ص٢٦٧.

حداثة سنِّه وبالنسبة لمن عاصره من الشعراء، بإبداع شعريٍّ لا مثيل له، ولا أُغالي في ذلك فلقد حفل شعره بعشق قدسيٍّ للوطن؛ فلسطين.[٣٢]

ومما قيل في الأستاذ **البحيريِّ** شعراً ما قاله شاعر الشَّباب **أَحمد رامي**، وهو الذي أَطلق على شاعرنا لقب (شاعر الحبِّ والجمال) يقول:[٣٣]

يا طائراً من سماء حيفا لقيتَ في ظلِّ مصر إلفا

إذا تساجلتما الأَغاني تمايل الغصن ثم رفَّا

لقد تعارفتما وداداً ثمَّ تبادلتماه عطفا

فمهجةٌ تلتقي بأُخرى وطيفُ روحٍ يضمُّ طيفا

وكذلك ما قاله الشاعر **أَحمد محفوظ**، مبتدأً الأبيات بقوله: إلى الشاعر الذي أَيقظ قلبي من غَفوته، الأستاذ **حسن البحيريِّ**:[٣٤]

لك شعرٌ أَرقُّ من نفحة الورد ومن همسة النَّجيِّ الولوعِ

هلهلتْ نسجه نسائمُ (حيفا) وسقاه الصَّفا من الينبوعِ

عاد لي بالشَّباب واللهو والحبِّ وهزِّ الفؤاد بين الضُّلوعِ

وسقاني بكأسه صبوة العاشق والواله الغزير الدموعِ

ليس عندي لسحره غير مدحي وثنائي لحسنه والبديعِ

---

(32) . صبري يوسف دياب: م.س . ص٢٠.

(33) . حسن البحيري: أفراح الربيع . مطبعة الصباح . دمشق . ط٢ . ١٩٩٠م . ص٤.

(34) . الأصائل والأسحار . م.س . ص٨.

وكذلك أَيضاً ما قاله فيه شاعر الدُّستور الأُستاذ **عز الدِّين علي السيِّد**:

أيُّها العاصرُ أخلاف النُّجومْ صائغاً أَلحانه من نورها

إنَّها صهباءُ أَصحاب الهمومْ ترقص النَّشوة في أَقطارها

★ ★ ★

تلك يا سائلُ عن درِّ الكنوزْ بدرة أَعمت عيون النَّاقدِ

كم إليها أَنحلَّ سحرٌ ورموزْ بالغتْ فيها بنانُ العاقدِ

★ ★ ★

حَسَنٌ صوَّر من ذوب الشعورْ

روعة الفنِّ بكفِّ المبدعِ

روحه قد لبست تلك السطورْ

هكذا شعرُ الشَّباب الأَلمعي[٣٥]

★ ★ ★
★ ★

وأخيراً، هذه الأبيات التي قالها فيه كاتب هذه السطور:

يا شـــاعِر الحبِّ والجمالِ — أَسكرتَ من شـدوِك الليالي
أَودعتَ في شـــعركَ الحنانا — يشـــفى به كلُّ ذي اعتـلال
أَعـدتَ لي عـذب ذكرياتي — أَعـدت أَحـــلاميَ الخـوالي
فأَنـت بالسـحر لا الأَماني — ملكـــــت منِّي رؤى خـيالي
فكلما يذكـر (البحيريْ) — تطوف أَحـــلى المنى ببالي
نظـمتَ من رائـع المعاني — قصـائداً من ربى الجـــــلالِ
بأَحـــرفِ النُّـور سـطَّرتها — فخـراً يَدُ الحسـن والكمالِ
مخضلَّةَ السِّحر مسـتديماً — للوصـــــــل ريَّانـة الظِّـلالِ
أَبيــــاتها خمرة الجـنانِ — أَعنـابها صــــــفوة الجـمالِ
أَفـــــياؤها آيـة الهـيامِ — أَكرم بها سـدرة الوصـــالِ
أَلفاظـك السَّوسن المندَّى — بالعـطر لألاءة الخِــــــلالِ
حمَّلتهــا رقَّـــــــةً وإلفاً — يجلو صـــفاها دجى التَّبالي
تفيض ســـحراً، تشعُّ فكراً — تضـــــوعُ من أَجلها الغـوالي

★ ★ ★

يا ناظم الحســن بالطِّلالِ — سكبت من شـعرك الطِّلا لي
فرحـتُ من نشـوتي أُنادي — يا ليتَ في سَــكرتي التَّوالي

دمشق في ٧ / ٥ / ١٩٩٢ م.

---

(35) ـ م.س ـ ص٩.

سَعد صائِب

أَصَـــالة ومـــَبدأ(*)

(*) – نشر هذا الفصل في مجلة الثقافة الشهرية – دمشق – عدد شباط ١٩٩٣م.

لَعلَّه من حسن طالعي أَنِّي سُعِدت بلقاء هذا الأستاذ القدير وأَنا في مطلع حياتي الأَدبيَّة... منذ قرابة عشر سنوات، في مبنى اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق، وعرفت في ذلك اللقاء، من خلال الأَستاذ سَعد صَائِب معنى تواضع الأَديب العالم، إذ قال في أَثناء الحديث – ولا أَذكر المناسبة تماماً –: على رغم أَنَّ لي ما ينوف عن السبعين كتاباً، وقد قاربت السبعين عاماً، فإنِّي في بداية الطَّريق... إنَّ ما أَجهله أَكثر بكثيرٍ جدَّاً ممَّا أَعرفه.

كلمات تعبق بروح التَّواضع الجليل، تواضع العالم الأَديب الذي لا يستحي أَن يقول: (هذا الأَمر لا أَعرفه..) إلى رغم أَنَّه يتربع على قمَّةٍ من قمم الأَدب، فهذه الرُّوح هي التي يستحقُّ صاحبها عليها الإجلال والتَّقدير، وهي التي تَهَبُ الإنسان الثِّقة، وهي التي تجعله يكبر في أَعين الآخرين.

إنَّ مثل هذا الكلام، من مثل هذا الأستاذ، ليُشعرك بالغبطة والسَّعادة، ويفرض عليك أَن تقف أَمامه باحترام، وفي الوقت ذاته يدفعك إلى الشعور بالغثيان من أُولئك الذين يطلعون علينا كلَّ يوم (وهم لا يعرفون الخمسة من الطَّمسة) ويرون في أَنفُسهم – على رغم

ذلك – في مرآة ذواتهم على أَنَّهم خير من أَشرقت عليهم؛ فلا ينفكُّ أَحدهم عن القول:

كتبت (قصيدةً أوكتاباً أومقالة...) أَتحدَّى بها فلان وفلان (من كبار الكتَّاب والشعراء والأُدباء...).

لا شكَّ في أَنَّه لا مجال للمقارنة هنا، لأَنَّ ثمة مفارقة مضحكة في مثل هذه المقارنة بين واحد من الكبار، مثل **سعد صائب**، يقول – على جليل ثقافته:(أَنا ما زلت في بداية الطَّريق) وناشئ غرٍّ لا يعرف مبادئ لغته التي يكتب بها ولا أَوَّلياتها، ويقول: (كتابي أَفضل ما كُتب في اللغة العربية على هذا الصَّعيد) !! وفي حين يقول **الأُستاذ سَعد صَائِب**: (ما أَجهله أَكثر بكثيرٍ جدَّاً ممَّا أَعرفه) يقول هذا النَّاشئ الغرُّ: (قليلٌ جدَّاً جدَّاً من المثقفين أولئك الذين هم بمستواي الثَّقافي والمعرفي) !!

صحيحٌ أَنَّ هذه المقارنة مفارقة مضحكة، إلاَّ أَنَّها وفي الوقت ذاته جائرة بحقِّ أُولئك الكبار الذين مهَّدوا لنا الطَّريق، وقدَّموا لنا تراثاً ثرَّاً، هوزادنا الثقافي الذي متحنا ونمتح من معينه الفيَّاض كثيراً.

محطَّات في حياته

– ولدَ بدير الزُّور في ١٧/ تشرين الثَّاني / ١٩١٧م.

– دَرَس في دير الزُّور المرحلة الابتدائية والإعداديَّة، وأَنهى دراسته الثَّانوية في معهد (اللاييك) بدمشق، ثم التحق بجامعة (القدِّيس يوسف) ببيروت (كليَّة الآداب).

– بدأ بنشر نتاجه الأدبي في الصحف والمجلات العربية الدَّوريَّة واليوميَّة عام ١٩٣٦م.

– صدر له أَوَّل كاتب مترجم عن الفرنسية بعنوان (طريق الخلاص) ونال عليه الجائزة الأُولى عام ١٩٤٢م.

– شَغَل وظائف جمَّة في الدولة؛ فكان مديراً لمكتب وزير الزراعة، ثم مديراً للمتحف الزراعي.

– أُحيل إلى التَّقاعد عام ١٩٧٨م.

– أَسس مع رفاق له من الأُدباء عام ١٩٥٨م جمعية الأُدباء العرب وشغل أَمانة السر فيها حتَّى حُلَّت عام ١٩٦٣م.

– عضو اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق.

– عضو المجلس الأَعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منذ تأسيسه عام ١٩٥٨م.

– عضو مؤتمر الشِّعر العالمي الدَّائم في بلجيكا.

– عضو شرف في الاتحاد الدولي للمؤلفين باللغة العربية بباريس.

– شارك في مؤتمرات ثقافيَّة وأَدبيَّة؛ عربية ودوليَّة.

– نال شهادة تقدير من هولندة على كتابه (ديوان الشِّعر الهولندي المعاصر).

– تُرجمت بعض كتبه إلى أَكثر من لغة أَجنبية.

– أقيمت له في دير الزور عام ١٩٨٧م حفلة تكريميَّة شارك فيها نخبة من أُدباء القطر مثل **أنور الجندي وعبد المعين الملوحي وإبراهيم الكيلاني وبديع حقِّي ومدحة عكاش** وغيرهم.

– أَحدث بدءاً من عام ١٩٨٨م جائزة سنويَّة باسم جائزة **سعد صائب** للشعر والقصَّة تشجيعاً للأُدباء النَّاشئين في محافظة دير الزور.

– أُقيمت له في (ثانويَّة الفرات) بدير الزور حفلة تكريمية عام ١٩٩٠م.

– أَحدث بدءاً من عام ١٩٩٠م جائزة سنويَّة تشجيعيَّة للفائزين الأَولين في فرعي الشهادة الثانويَّة (الأدبي والعلمي) من طلاَّب ثانويَّة الفرات.

تواضع الأَديب

لأَنَّ التواضع من القيم الأَخلاقيَّة المتميزة التي تأتي بعد الواجب الأَخلاقي، تزكيةً له، وزينة للنفس، وسعياً إلى كمالها، فإنَّنا نخوِّل لأنفسنا الإصرار على تقديم التَّواضع لدى تبياننا جوانب الشَّخصيَّة التي نتحدَّث عنها، ولا سيَّما في حديثنا عن هؤلاء الكبار؛ عمالقة الفكر والأدب الذين أَرسوا دعائم الحركة الفكريَّة في وطننا، ورفدوها بتراث فكري وأَدبي ثرٍّ لا ينضب معينه، فعلى رغم جليل جهودهم وأَهميَّتها تجدهم في غاية التَّواضع، في الوقت ذاته الذي نجد فيه (أُناساً) لا يفقهون ما يعرفون، ويتشدَّقون فيقولون: (نحن ونحن ونحن...) ويعظِّمون أَنفسهم ويبجِّلونها!!

قال لي **الأُستاذ سعد** ذات مرَّة:

– يسمُّونني بالأَديب، ولست أَديباً.

فقلت: حاشاك، إن لم تكن أَديباً فمن يكون الأَديب إذن ؟!

فقال: كثيرون، ولكنِّي لست منهم، إنَّ كلمة أَديب ذات دلالات عميقة وكبيرة... إنَّها شيءٌ عظيم، ولا يجوز أَن نطلقها هكذا جزافاً من غير حساب على كلِّ من كتب أَو ثرثر... ولذلك أَقول إنَّها كبيرة عليَّ... حقَّاً لقد تمنَّيتُ أَن أَكون أَديباً، ولكنَّ هذا ما لم أُحقِّقه بعد، فما زلت أَحبو..!!

فقلت: يا أُستاذنا، تحبو ولك من الكتب مئةٌ وخمسون ؟!

فقال: ولكنَّ أَجمل كتاباتي هي الكتب الكثيرة التي لم أَكتبها بعد، حتَّى الآن لم أَكتب الكتاب الذي أَهجس بكتابته، وصورته في خيالي.

لا شكَّ البتة في أَنَّ الأُستاذ **سَعد صَائِب** من الأُدباء الكبار واللامعين، والتَّواضع من سمات الكبار، فمن عَظُمَ علمه، وكثرت معارفه، أَدرك اَنَّه يجهل الأَكثر، ومن قلَّ زاده ظنَّ الآخرين من غير زاد، فعَظُمَ قليله في نظره.

ويبدو تفاؤله ملازماً لتواضعه، فهو- سواءً كان راضياً أَم غير راضٍ عمَّا كتب - يتطلَّع دائماً إلى الأَفضل، يحبو إليه، كتابه الأَفضل دائماً هو الذي سيكتبه، ويهجس به، وعزيمته على ذلك لا تفتر ولا تلين، وهمَّته لا تُقصِّرُ بل تشمِّرُ وتعين، وها هو يقول:

- إنِّي أَقرأُ عشر ساعات يوميَّاً، وأَكتب ثلاث ساعات، أَصحو في الثالثة صباحاً فأَقرأُ حتَّى السابعة حيث أَتناول الإفطار لأُتابع القراءة بعده حتَّى الحادية عشرة، فأَخرج للاستمتاع بجمال الطَّبيعة أَوصحبة الأَصدقاء وأَعود في الثَّانية لأَقِيلَ نحو ساعة وأَستيقظ لأُتابع القراءة.

سَعد صَائِب في نظر معاصريه

كثيرةٌ هي الأَوسمة التي عُلِّقت على صدر الأُستاذ **سَعد صَائِب**، من جوائز وتقديرات وشهادات وتكريم، يستحقُّها عن جدارة، والحقُّ أَنَّ استعراض كلِّ ذلك أَمرٌ يطول بنا، ولذلك سنقتطف طائفة قليلة من شهادات المفكرين الأجلاَّء الذين عاصروه، وإن كانت كلُّها تستحقُّ الذكر فعلاً من غير مراء ولا جدل.

خليل هنداوي

سعد صائب كاتب موفَّق لا يصدر إلاَّ مدفوعاً بفكرة مشبعة، أَو عقيدة حارَّة، أَو عاطفة ثائرة...واللغة في كتابته لا أَجد أَدعى منها إلى سلامة التَّعبير ورونق البناء، ووضوح الفكرة، كأَنَّ صاحبها يقول حيث تطلبه: إنِّي هنا...

د. إبراهيم الكيلاني

لعلَّ أَجمل ما في خواطرك أَنَّها ليست وليدة نزعة عقائديَّة جامدة، بل هي سمحة خفيفة تارة، وجدَّية وقورة تارة أُخرى، ولكنَّها في الحالين تتصف بالذوق السليم والنَّظرة الصائبة، والأُسلوب المركَّز القوي.

د. محمد الفاضل

ولعلَّ أَروع ظواهر جهدك القيِّم، هو مصدر الإلهام فيه، هذا الشعور اللاهب السَّاري بمشكلة الإنسان في عصر الحضارة الجديد – المخلوق العجيب، وهذا الإدراك العميق لمسئولية الجيل الصَّاعد، في ابتكار الحلِّ الصالح... بوركت يا أَخي سَعد وبوركت رسالتك، وأَكثر الله من أَمثالك

الذين يَحْيون مشاكل عصرهم كما تحياها، ويفكِّرون بمداواتها كما تفكِّر، ويدعون لخلق إنسان أَسمى من إنسان حضارة الغرب، كما تدعو أَنت...

د. زكي نجيب محمود

تشرَّفتُ منذ أَيَّامٍ قلائل بكتابيك (آن الأوان) و(صراعٌ مع الغرب) ورحت أَقرأُ وأَقرأُ، وكلما قرأَتُ صفحة بعد صفحة وفصلاً بعد فصل، ثم كتاباً بعد كتاب، ازددتَ مثولاً أَمام بصري، رجلاً عربيَّاً ثائر الوجدان، مرهف الحسِّ، قويِّ الحجَّة، طلق اللسان، مهموماً بما يهمُّنا جميعاً، مشغولاً بما يشغلنا جميعاً، وما فرغت من كتابيك حتَّى انطلق لساني قائلاً: هكذا يكتب العربي لقومه العرب، فلمثل هذا القول يتحرَّك في فم العربي لسانه،وبمثل هذه الكتابة يجري القلم.

أَنا أَعرف يا أَخي **سَعد** أَنَّ خلقك الأَبيُّ هذا كلَّفك الكثير الكثير وأَنَّك تعيش بسبب من هذا الإباء عيشة تقتير، ولكنَّك كتبت بإبائك وكبريائك وشممك اسمك بأَحرف من نور...و**سَعد** في خلقه الثالث بعد الوطنيَّة والإباء، إنسان وفيٌّ. تستطيع أَن تعتمد على وفائه وإخلاصه كما تعتمد على شجرة سنديان تسند إليها ظهرك.

د. بديع حَقِّي

لأَنَّه يُؤثِرُ أن يظلَّ دوماً، كالنَّحلة الرَّشيقة البارعة، يصنع الشَّهد الشَّهيَّ للناس، أَكثر ما يصنعه لنفسه، فهو ينقل أَروع الشِّعر العالمي إلى العربية، مكتفياً بهذه المهمَّة الشَّاقَّة الحلوة معاً، ليروى ظمأً من ينشدون الينابيع الثرَّة السَّخيَّة التي يجهلها القارئ العربي.

د. شكري روحي الفيصل

إنَّ كتابك (الشاعر الشَّهيد **عمر حمد**) يشكِّلُ إثارة كاملة: إثارةً تاريخيَّةً تهدف إلى تعميق المعرفة الدَّقيقة لهذه الحقبة والنَّفاذ إلى ما وراء الذين عرفناهم من أَحداثها، وامتحان ما بين أَيدينا من مصادرنا، والوصول إلى ما هو أَبعد من هذه المصادر القريبة... وإثارةٌ قوميَّةٌ تهدف إلى تعميق الصِّلة برجالاتنا وحركتنا وشهدائنا... وإثارةٌ أَدبيَّة تهدف إلى وضع تراثنا العربي في هذه الفترة موضع دراسة.

إنَّ الوصول بهذه الإثارات كلِّها إلى غاياتها، أَمر لا يمكن أن ينهض به عملٌ محدود الصَّفحات، ولكنَّ عملك – على صفحاته المحدودة – يفتح الطَّريق إلى ذلك كلِّه، ويدفع إلى ذلك كلِّه.

مكانته وأَهمِّيته

تتجلَّى مكانة **الأُستاذ سعد صائب** وأَهمِّيته، أَثر ما تتجلَّى في التَّراث الكبير كمَّاً وكيفاً، الذي قدَّمه لنا، والذي بلغ حتى الآن قرابة مئة وخمسين كتاباً، انصبَّ معظمها على الدراسات الشِّعرية العربية والعالمية؛ تأليفاً وتعريباً ــ عن الفرنسية – إلى جانب خواطره الكثيرة التي نهج فيها نهجاً خاصَّاً استوى من خلاله أَديباً ناثراً مبدعاً من طراز متميِّزٍ «يدبِّج كلماته بعناية فائقة تبلغ في بعض الأَحيان حدَّ التَّأنق، حتَّى لكأَنَّ الكلمة بين يديه قطعة مرمرٍ منحوتةٍ أَو كسرة ماسٍ مصقولة، أَوكأنَّ الجملة لديه على قصرها أَشبه بسبيكة صغيرة معجبة... تنطوي على خاطرة نافذة أَو فكرة ثاقبة.

مثل هذا الكلام المدبَّج الذي يحرص على تكثيف المعنى الجليل في اللفظ القليل... ولعلَّ نثر **سَعد صائِب** قي (خطراته) و(قطراته)، ونحوهما يبدو أَكثر جلاءً على هذا الصَّعيد بمقارنته مع جذور له أَكثر إيغالاً في منثور كلام العرب، وأَعني به (جوامع الكلم) التي عرفها البلغاء في فجر الإسلام، ولا سيَّما ما كان من عبارات مجملة تنطوي على حكم بالغة. وينمُّ عن أَصَالَة في الفكر وثقوب في النَّظر وسمو في الهدف (د. عمر دقَّاق)».

آ – مجمع الشِّعر العالمي

يقول الأُستاذ **أَسعد علي**: إنَّ **الأُستاذ سَعد صَائِب ابن بطوطة** معاصر، والحقُّ أَنَّه لا يقصد من ذلك رحلاته التي جاب من خلالها كلَّ الدُّول الأَوربيَّة تقريباً، غَربيِّها وشرقيِّها، وإنَّما يقصد ترجماته لآداب وأَشعار معظم شعوب العالم، إغناءً للمكتبة العربية بهذه الأشعار حتَّى نستطيع وصفه بحقٍّ أَنَّه مجمع الشعر العالمي. أَمَّا ما قدَّمه على هذا الصَّعيد فهو: ديوان الشِّعر الهولنديِّ المعاصر. شعراء معاصرون من العالم. في رياض الشِّعر العالمي. ديوان الشِّعر السويديِّ المعاصر. ديوان الشِّعر الإسباني المعاصر. قصَّة الأَدب العالمي المعاصر. مختارات من الشِّعر الأفريقي المعاصر. مختارات من الشِّعر الآسيوي المعاصر. أَجنحة الصَّمت (مختارات شعريَّة من العالم). مختارات من الشِّعر المعاصر في ليتوانيا وأستونيا. مختارات من الشِّعر الإندونيسيِّ المعاصر. مختارات من الشِّعر الفرنسيِّ الحديث. شعراء رمزيون وشعراء معاصرون. شعراء فنلنديُّون.

شعراء من أَمريكا الجنوبيَّة. شعراء وأُدباء من الشَّرق والغرب. رسائل إلى شاعر ناشئ (**ريلكه**) فنُّ الشِّعر في قصائد شعراء العالم وكلماتهم. شعراء فرنسيون معاصرون. تقاسموا ضياعكم (للشاعر **أَندريه مارسيل دانز**). قصيدة معرفة الشَّجر والإله (للشاعر البلجيكي **جورج لانز**). اثنان من العباقرة (**ميكائيل أَنجلووليوناردودافنشي**). من أَساطير الشُّعوب. فاوست (أُبريت لشاعرين فرنسيين من القرن التَّاسع عشر). ساد بالأَمس فقرٌ (للشاعر **إيف بونفوا**). أَغانٍ غجريَّة (ديوان **لجارسيا لوركا**). الغناء العميق (ل**لوركا** أَيضاً) الشَّعر الشهيد **شاترتون** (مسرحيَّة **لألفرد دوفيني**). **دون جوان** (مسرحيَّة **لموليير**). قصائد سياسيَّة (ديوان **لبول آيلوار**). فجر افريقي (للشاعر الأفريقي **نيكتيا فوديا**). قصائد – الأَعمال الشِّعرية (الكاملة للشاعر الفرنسي **أبولبنير**). أفريقيا هاجسي (ديوان للشاعر **رضا زيلي**). الخادمات (مسرحيَّة **لجان جينيه**). حارس القطعان (قصائد للشاعر البرتغالي **فرناندوبيسوا**). أَقاصيص شرقيَّة **لمرجريت يورسينار**. جولة مع أَطفال العالم في أَوطانهم. القسوة الأَشدُّ عُنفاً للشاعر الفرنسيِّ **شارل جولييه**. قصائد مختارة للشاعر البلجيكي **موريس كاريم**. بيتنا الأَبيض (ل**كاريم**). أُم (ل**كاريم** أَيضاً). الآن للشاعر السويدي **جوران سونوفي**. مشاهد من الحياة للشاعر السويدي **فولك ويرن**. صقر الشتاء للشاعر السويدي **إريك لندجرن**. صيَّاد القمر للشاعرة الفرنسيَّة **مينودرويه**. فرجة الغابة للشاعر الفرنسيِّ **جان مابرينو**. أَشما (أُسطورة صينيَّة).

ب . أَدَبُ الأَطفال

يقول **الأُستاذ سَعد صَائِب**: إنَّ حبِّي للأَطفال دفعني لكتابة قصصٍ لهم بأُسلوب أَردت به أَن يَرتفع بمستواهم، وأَردتُ أَن أَملأَ حياتهم بالحقيقة والخيال. ولقد رفد المكتبة العربية لتحقيق هذا الغرض الرَّائع النبيل بمجموعة كبيرة أَيضاً تستحقُّ دراسة مطوَّلة تُخَصُّ لهذا الغرض، نأَمل أَن تتاح لنا العودة إليها في دراسة قادمة إن شاء الله، وهذه الأَعمال هي: الأَرنب عفراء. مملكة الأَزهار. الموجة وطائر النَّورس. البِطِّيخة الحمراء. الكوَّة السِّحريَّة. بركة النَّار. الشَّارع الأَخضر. الصيَّاد الصَّغير. مرجان وأَصدقاؤه. طاب يومك أَيها الطَّبيب. الموسيقيُّون واللصوص. مغامرات رشأ الصَّغيرة. البنت الوفيَّة (حكايات من العالم). الكنز (حكايات من العالم). حديثُ جدَّتي. الفؤوس الثَّلاث. الزَّهرة الزَّرقاء. الغسَّالة والخبَّاز. سرُّ السُّجَّادة الزَّرقاء (حكايات من العالم).

ج ــ في المعاجم

ولقد وضع **الأُستاذ سَعد** ثلاثة معاجم جدَّ مهمَّة هي معجم الأَلوان، ومعجم المشتقَّات في العربيَّة، ومعجم الحركات في العربيَّة. ولعلَّ أَهمَّها معجم الأَلوان الذي سلخ له ما ينوف عن أربع سنوات بحثاً واستقصاءً عن تسميات أَلوان الأَشياء كلِّها في اللغة العربيَّة، إذ المعروف أَنَّ اللغة العربيَّة من أَغنى لغات العالم في مفرداتها ومعانيها ودقَّتها في تسميات الأَشياء على اختلافها وتباينها، ومن أَوجه هذه الدِّقَّة أَنَّ اللون تختلف تسميته باختلاف الشيء الذي يتلون به، فاسم

مرة الخدِّ غير اسم حمرة الشفة غير اسم حمرة السان غير اسم حمرة الثوب... ولنا أَن نتصوَّر مدى مشقَّة هذا العمل الذي قام **الأُستاذ سَعد صَائِب**، ولقد ذكر لي أَنَّه حاول بناءً على طلب مكتب تنسيق التَّعريب في المغرب التَّابع لجامعة الدول العربيَّة أَن يجعل هذا المعجم ثلاثيَّ اللغات لولا أَنَّه لم يجد في اللغة الفرنسية التي يتقنها من المفردات ما يقابل دقَّة هذه التسميات في اللغة العربيَّة. ولنا أَن نتصوَّر لذلك أَيضاً مدى أَهميَّة هذا الجهد الجليل الذي بذله في الكشف عن بعض أَسرار لغتنا ودقائقها، ليفقأً بذلك أَعيُن الذين يرمون هذه اللغة بالعجز أَو القصور، وليؤكد بذلك أَنَّ العجز فيهم لا في اللغة، وليكمل مشواره هذا بمعجم المشتقَّات الذي يقدِّم لنا فيه تسميات عربيَّة أَصيلة لأَشياء أَلفنا – من جهلنا – التَّعامل معها باللفظ الأَجنبي لها.

«وحقَّاً إنَّه لأمر مستغرب، ومستنكر، أَن تفطن جامعات العالم إلى أَمثال **سعد صائب** و**عبد المعين الملوحي**، فتمنحهم الأَلقاب وكراسي التدريس... هذا ممكن وقد حصل لغير واحد من أَمثالهم، أَمَّا جامعتنا التي لم يخلق مثلها في البلاد... فهذه لن يُقنعَها بوجوده وتميُّزه إلاَّ الذي يجيئها بتلك الوريقة السِّحريَّة، ولو حصل عليها بالمراسلة فقط... ولو كان موضوعها – أَعني موضوع رسالة الدكتوراه ذاتها، بعضاً من كتب سَعد صَائِب ليس غير (**جمال عبُّود**)».

الأَصَالَة والحَدَاثة

يُقصد بالأصالة أَحد معنيين قلما يجتمعان معاً وإن كانا متلازمين متكاملين ينبثق أَحدهما من الآخر انبثاقاً، فهي إمَّا أن تعني التَّجذُّر، أَو تعني الجِدَّة، فالأَوَّل موضوعه السابق، أَو الماضي، ويهدف إلى سبر العراقة والتَّجذُّر في الماضي. والثَّاني يتَّخذ الحاضر والمستقبل موضوعاً، ولكن بالمقارنة مع الماضي بالضرورة. وبهذا المعنى نجد أَنَّ الأَصالة والحداثة دلالتين لمضمون واحد هو السيرورة التاريخيَّة لوقائع مُجَسَّدة من قبل الإنسان، ينبثق تَجَسُّدُ حاضرها من ماضيها ومستقبلها من حاضرها، لتغدو الحداثة بذلك أَصَالَة الحاضر، أَمَّا الحداثة التي لا تستمدُّ مسوِّغات وجودها من جذورها التي تأَصَّلت في تربتها فليست من الأَصالَة في شيء، ولذلك لن تكتب لها الديمومة.

بهذا المعنى فَهِمَ **أُستاذنا سعد صائب** الأَصالة، وعلى ضوئه كان نتاجه الأَدبيِّ الكبير؛ خواطر ودراسات ونقداً. ولعلَّه من نافلة القول أَن نشير إلى أَنَّ **الأُستاذ سعد** ذو جوانب إبداعية متعدِّدة ومتباينة، فكان ناثراً متفرِّداً بأسلوب نثريٍّ خاص، وناقداً متميِّزاً.

آ – في النَّثر

قدَّم **الأُستاذ سعد** كثيراً من الخواطر المدبَّجة بحسن الرَّونق وعذوبة اللفظ وجودة السَّبك وظرف اختيار المواضيع والمعاني، التي كانت تجسيداً رائعاً بارعاً لهذا الفنِّ الأَدبيِّ، وتمثُّلاً صادقاً لتجربته الشخصيَّة المفعمة بالإحساس المرهف والذَّوق النَّقي، المتأَججة بحبِّ الوطن

الصادق والإخلاص له ولتراثه، ومن أَهمِّ هذه الخواطر: لم تمت الحقيقة. صيحة في واد. ابتهالات لأدب جديد. قطرات ندى. شظايا. دور المثقَّفين في تحديد المجتمع العربي. وهج الظهيرة. ذوب الروح. إلى أَين ؟. براعم... وغيرها.

ومن المعروف أَنَّ الحاذين هذا الحذو في الكتابة النثرية قلة، والمجيدون أَقل، ولعلَّه يجوز لنا القول إنَّ الساحة الأَدبية العربية قد من أَمثال هؤلاء الكتَّاب الذين رحلوا الواحد تلو الآخر؛ أَمثال **جبران خليل جبران ومصطفى صادق الرَّافعي وإبراهيم المازني وأَحمد حسن الزيَّات**... ليبقى **سعد صائب** – أَطال الله عمره – شبه وحيد في هذا الفنِّ الذي تأَنَّق فيه وتألَّق إلى الحدِّ الذي دعا الدكتور **عمر دقَّاق** إلى القول: «إذا كان بعض شعرائنا القدامى معروفين بأَنَّهم من أَصحاب الحوليات ضمن مدرسة عبيد الشِّعر، لمعاودتهم النَّظر فيما ينظمون وحرصهم على إتقان صناعة الشِّعر من أَمثال **زهير والحطيئة وكعب**... فإنَّ الكاتب **سعد صائب** يمكن أَن يعدَّ أَيضاً من هذا القبيل، أَو يكون على مذهب أُلئك المتقدِّمين في مجال التجويد والتنقيح... وأَنَّه تبعاً لذلك يعدُّ في أَدبنا العربي المعاصر من عبيد النَّثر».

ب – في النَّقد

«غير خاف على أَحد أَنَّ الجانب النَّقدي لم يُدرس بعد دراسة وافية، ويمكن الادِّعاء بأَنَّ **سعد صائب** رائد فيه، بذل الوقت والجهد

في الإعلاء من شأنه وترسيخ مفهومه في وجدان المتلقي العربي (**سمر روحي الفيصل**)».

ولقد أفاد أُستاذنا في دراساته النقدية من ثقافته الموسوعية الشاملة، بدءاً من فنون الأدب والشِّعر وضلوعه بخصائصها ومقوِّماتها وأساليبها، مروراً بتعمُّقه في لغته العربية وسعيه إلى سبر أسرار الجمال فيها، وصولاً إلى حُسن درايته ومزيد اطلاعه على الآداب العالمية المختلفة، وثقافات كثير من الشعوب، ولذلك نجد دراساته مدعَّمة بالشَّواهد والأدلَّة الكثيرة التي تضفي مزيداً من الألق والرَّونق على دراساته وعذوبتها، حتَّى لتشعر وأنت تبحر على أحد مراكبه النَّقدية بأنَّه ينقلك بفائق العناية وحسن الاختيار من جزيرة غنَّاء إلى أُخرى أغنى، ومن رياض إلى رياض، ومن مدٍّ بديعيٍّ إلى مدٍّ جمالي...فلا تجد الملالة إلى نفسك مدخلاً ولا سبيلاً، بل تشعر بأنَّك أميَلُ إلى الغرق في بحر هذا الكاتب الكبير.

وعلى العموم، نستطيع أن نتبين من خلال تتبع آثاره النَّقديَّة أنَّه لم يكتف بالأُسلوب النَّقديِّ الخالص، أو ما يمكن تسميته تأطير المناهج النَّقديِّة وصوغها صياغة نظريَّة يستعين بها الباحثون والنُّقَّاد في أثناء الممارسة الإبداعية والنَّقديَّة، وإنَّما تعدَّى ذلك إلى تطبيق هذه المناهج النَّقديَّة – التي يضعها ويضبطها –على نماذج مُعيَّنة من الشعر أو النثر، تأكيداً منه على التزامه بما يقرُّه من مبادئ وأُصول

ومناهج نقديَّة، والحقُّ أَنَّ هذه الظاهرة وإن لم تكن نادرة في تاريخنا الأَدبي، إلاَّ أَنَّها ليست كثيرة التكرار، ونذكر على هذا الصعيد، من تاريخنا القديم، **ابن رشيق القيرواني وابن قتيبة وابن خلدون**، ومن الحديثين **عبَّاس محمود العقَّاد ومصطفى صادق الرَّافعي** وغيرهما.

ولم يقتصر أُستاذنا في نقده على جانب أَو صعيد فكريٍّ واحد، وإن استأثرت الموضوعات الأَدبيَّة عموماً، والشِّعريَّة خصوصاً، بالنَّصيب الأَوفر من دراساته النَّقديَّة، ولعلَّ أَبرز إسهاماته على صعيد نقد فنون الأَدب النَّثريَّة؛ كالرواية والقصَّة والمسرحيَّة والمقالة... هي: دراسات أَدبيَّة في المجالين الإبداعي والنقدي. مرايا أَدبية. ابتهالات لأدب جديد. وفيها يبدو نزوع **سعد صائب** الإبداعي، وامتزاج روحه بالنَّزعة الإبداعية (الرومانسية)، كما يبدو ميله الشديد إلى الواقعية، ونفوره من الإغراق في الرمزيَّة والتجريديَّة وأَضرابهما، محدِّداً الواقعيَّة بأَنَّها وثاقة الارتباط بالحياة والمجتمع، ولذلك فإنَّه ينصح القاصَّ قائلاً: «في القصة عليك أَن تنفلت من الذَّات لتدخل في أُفق مجتمعك الرحب (مرايا أَدبية -٦٩)».

ويبيِّن ما يقصده من انفلات الذَّات في مكان آخر بقوله: «لا تظنَّن أَنَّك إذ تغلب (نزعتك الذَّاتيَّة) في حكمك على أَثر أَدبيٍّ، إنما تؤكِّد موقفك من صاحبه فحسب، بل تؤكد موقف قارئك من حكمك كذلك !... أَوَلا تعلم أَنَّ أَيَّة نزعة ذاتية - مهما كانت

صادقة – هي إحساسٌ يبلور موقفاً خاصَّاً، قد لا يأتلف وموقف قارئك ؟ كن محايداً...(ابتهالات لأدب جديد – ٥٣)» وهذه بالتحديد ما نسمِّيها الموضوعيَّة، ولا غروفي ذلك طالما أَنَّ أُستاذنا لم تستطع أَن تتنازعه التيارات الأَدبيَّة المختلفة... إنَّه يبحث عن الحقيقة ويكأَد للإمساك بها، فلا يكتفي بأَن «نجعل الحقيقة في عقولنا – بل يجب – أَن تكون في قلوبنا أَيضاً (قطرات ندى – ١٥٦)» وإنَّ كاتباً هذا دأبه ينبغي أَن يكون موضوعيَّاً، وهو القائل في ابتهالاته: «لنكن إذن موضوعيين».

أَمَّا في المجال الشِّعريِّ فله كثير من الدراسات على المستويين النَّظري والتطبيقي، ولعلَّ أَهمَّها: صراع بين جديد شعرنا وقديمه. فنُّ الشِّعر عند شعراء العربية القدامى. **الأَخطل الصغير. خليل مطران.** الشاعر الشهيد **عمر حمد،** مع الفجر العربي. شعراء فرنسيون معاصرون؛ وهودراسة نفسيَّة معمَّقة انتهج فيها نهجاً خاصَّاً، لم يتأثَّر بآراء النُّقَّاد، بل عكس ما استوحاه من لآثارهم الشِّعريَّة وسجَّلها انطباعاً يعكس تمثُّله التجارب الشُّعوريَّة والصُّور الموحية التي زخرت بها آثارهم، ليدلَّ على النَّهج الصحيح في دراسة الشعراء ومعايشتهم في تجاربهم الشِّعريَّة. «ولقد استأثرت مسألة الصراع بين قديم الشِّعر وجديده باهتمامه النَّقدي الواسع، فأَفرد لها كتاباً بهذا العنوان نفسه – وكان قبل ذلك وبعده أَيضاً – قد تناول أَبعاد هذه المسألة النقديَّة الكبرى في عدد من دراساته النظريَّة أَو التطبيقية، وخواطره الذَّاتية ومحاضراته ومقابلاته أَيضاً، فجاء

تأليفه هذا الكتاب ليعبر عن خلاصة هذه الآراء، ويتوِّج هذه الأَفكار والمواقف النقدية، وقد عرَض في صدره تاريخ هذا الصراع في النَّقد اليوناني القديم، ووقف مطوَّلاً عند الخصومة بين القدماء والمحدثين في شعرنا القديم، ورصد أَصداء هذه الخصومة في النَّقد العربي، ومواقف النُّقَّاد المختلفة منها، ليصل إلى الكشف عن طبيعة هذا الصراع في شعرنا المعاصر (**محمد خير شيخ موسى**)».

ج – الحداثة أَصَالَة

يعتقد كثيرون أَنَّ الحداثة والتجديد يتمثَّلان بامتثال كلِّ بدعة وجديد وتقمُّصهما، ضاربين الصَّفح عن جذوره وأُصوله، أَو بعده عن تراثنا الحضاري، وانطلاقاً ممَّا بيَّناه من أَنَّ الحداثة والأَصَالَة دلالتان لمضمون واحد، تختلفان باختلاف الآن والزمان، فقد وقف أُستاذنا من الحداثة موقفاً حاسماً وواضحاً، ويبدأُ أَوَّل ما يبدأُ بالموقف من التراث، والموقف الحقيقي من التراث يتجلَّى في بعث الحيويَّة فيه لا في تجميده أَو تثبيته أَو اعتباره المثل الأَعلى الذي لا يمكن تجاوزه، إذ «يَفسُدُ التُّراثُ حين يغدو تقليداً، ويصلح حين يُمسي مسئوليَّةً (ابتهالات لأدب جديد – ٣٥) «ليضيف إلى ذلك أَنَّ إحياء التراث وإغنائه وتجديده مسئوليَّةٌ لا مجرد موقف عابر أَو عابث أَو حيادي، و«على الأُدباء تحمُّل عبء التَّوعية... ودفع خطر الشعوبيَّة عن قوميَّتنا وعكسها في نتاجهم، والعمل على تحقيق ذاتنا القوميَّة وأَصَالتنا (آن الآوان – ٩٤)».

ولكن كيف يكون هذا الإحياء والإغناء ؟

يؤكِّد **الأُستاذ سعد** أَنَّ التجديد ضرورة لا معدَّى عنها تكاد تقارن الحتمية الطبيعية، ولكن هذا التجديد والانتقال من مرحلة إلى مرحلة ينبغي أَن يكون سليماً غير معتل، ولا ينطلق من مبادئ غريبة عنَّا، إذ «ليس الهدف من تحديث أَدبنا أَن نستورد التَّأثيرات الخارجيَّة فنقلِّدها، بل الهدف أَن نتمثَّل هذه التأثيرات ونستوعبها، بحيث تُمسي عنصراً منفعلاً في أَدبنا، لا عنصراً فاعلاً يمحو شخصيتنا، ويهدم أَصَالتنا (قطرات ندى – ٣٣)». وليبدو من خلال ذلك أَنَّه لا يقف موقفاً عدائياً من الآخرين، ولا كارهاً الاقتباس عنهم، فهو مؤمن بحوار الحضارات وتلاقيها، وكلُّ ما في الأمر أَنَّه علينا أَن نحسن استيعاب هذا الفكر المستورد، ونقيِّفه بما يتناسب مع شخصيَّتنا الحضاريَّة، ليغدو جزءاً من تجربتنا، لا أَن نغدو جزءاً من تجربته، ذلك أَنَّه «ليس أَدل على الزيف من استلهام شاعرٍ تجارب سواه ناسياً تجربته الخاصَّة (قطرات ندى – ٦٨)».

وثمة أُناس واهمون يعتقدون بُطلاً أَنَّ العصرنة أَو الانخراط في روح العصر ونمطيَّته تقتضي قطع كلَّ صلة أَو سبب يربطنا بماضينا، بانين هذا القول على اعتقادات خاطئة وادِّعاءات زائفة، وردَّاً على ذلك يقول **الأُستاذ سعد**: «التجديد لا يعني الصدود عن التراث ولا هدر اللغة والذَّوبان في التقليد، بل هو في الأَصَالَة التي تنبئ عن أَبعاد فنِّيَّة جديدة لا عهد لشعرنا بها، وربطها مع تراثنا... لتظلَّ متميِّزة عن كلِّ الأَشكال الوافدة إلينا، فلكلِّ أُمَّة شكلٌ من الأَداء يميِّزها، ويدلُّ على شخصيَّتها (صراع – ٤٨/٧٥)».

ويضرب لنا مثلاً على ذلك من الفنِّ التجريديِّ الذي راح بعض فنَّانينا يحذون حذوه ويتَّبعونه اتباع المقلِّد الأعمى، ويهوِّلون في تصاويرهم ظنَّاً منهم أَنَّ التجريد مزيد من التعمية والتهويل والغموض... فيقول على لسان ناقد غربيٍّ: «ومن عجبٍ أَن يتبنَّى فنَّانكم هذا الإحساس دون أَن يعانيه بصدق كما نعانيه نحن، وما درى أَنَّه سيظلُّ إحساساً زائفاً (لم تمت الحقيقة - ٧٧)» ويقول على لسان ناقد غربيٍّ آخر: «ويح فنَّانيكم أَلم يبلغ سمعهم قول أَحد مفكرينا: إنَّ في كلِّ إنسان غريزة عميقة، ليست هي غريزة الهدم، ولا هي غريزة البناء، ولكنَّها الرَّغبة في ألاَّ يشبه شيئاً أَبداً (لم تمت الحقيقة - ٧٩)».

والسؤال الذي لا ندحة لي عن طرحه:

«علام يتهافت فنَّانا إذن على هذه البدعة المدمِّرة، التي يصفها **بيكاسو** نفسه بأَنَّها (**صنعة عميان**) ؟ أَوَ يبتغي أَن يصبح أَعمى في (**فنِّه**) كيما يجرد عقل أُمَّته وحياتها من قيمها ؟ أَم يبتغي أَن يحطِّم هذه القيمة أَو يلغيها، بعد أَن أَثبت عجزه عن تكوين هذا العقل، ودلَّ على تقاعسه في التعبير عن تلك الحياة ؟... من يدري، لعلَّه بصنيعه هذا، إنَّما يقتدي (بحكمة الخضوع للغرب، الخضوع النهائي) على حدِّ تعبير **إليوت** (لم تمت الحقيقة -٨٢/٨١)».

د – الحداثة في الشِّعر

لعلَّه من نافلة القول أَن نشير إلى أَنَّ **الأستاذ سعد صائب** قد بدأَ حياته الأَدبية بكتابة ما يسمَّى (الشِّعر المنثور) سنة ١٩٣٩م، الذي

كان يبعث به آنئذ إلى الصحف والمجلات، ولأنَّ هذه الصحف قد تعفُّ عن نشره اضطر إلى استخدام اسم مستعار هو **ادوارد هدسن**، فصارت تنشر على أَنَّها قصائد مترجمة تثير إعجاب الأُدباء والمتلقين.

وفي لقاء أَجرته معه مجلة هنا دمشق عام ١٩٨٥م قال: «بدأت بكتابة ما كان يسمَّى بالشعر المنثور عام ١٩٣٩م... وكان لوناً جديداً في أَدبنا... ثم تطوَّر إلى حدِّ الروعة ولدينا شعراء متمكِّنون منه، ولكنِّي لا أُسمِّه قصيدة بل نثراً لأَنَّ القصيدة لا تطلق إلاَّ على الشِّعر، على رغم أَنِّي أُحبِّذ هذا اللون».

ومن هنا يتَّضح موقفه من حركة التَّحديث في الشِّعر، إنَّه «ليس من أَعداء الشِّعر الحديث _ إنَّه يحبُّه ويحبِّذه – إنَّه مع كلِّ جديد شريطة أن يكون عربيَّاً أَصيلاً، ويرفض كلَّ تجنٍّ على لغتنا (دراسات أَدبية – ١٠٥)». فهل في هذا الشِّعر الحديث شيءٌ من الأَصالة وعدم تشويه اللغة العربية والتَّجنِّي عليها ؟

يجيب **الأُستاذ سعد** على هذا السؤال قائلاً: «لئن رمت هذه الحركة إلى ابتداع أُسلوب جديد لتستعين به على بعض موضوعات العصر، فقد ضلَّت ضلالاً بعيداً لسببين، أَوَّلهما: نفي الإيقاع وهو ضروريٌّ لنمو فكرة الجمال الذي هو هدف القصيدة الأسمى، كما يقول **بودلير**، ورفض القافية، وهما مظهران حيَّان من مظاهر شعرنا لا تَحيدُ أُمَّتنا عنهما لأَنَّهما يعبِّران عن روحها وأَصالتها وطابعها... والثاني: تقليد الشُّعراء الغربيين مع

الجهل بخصائص شعرهم الذي يعتمد الصورة الموحية، والإيقاع الموسيقي (صراع بين الجديد والقديم – ٤٢)».

وليس هذا فحسب، بل إنَّ الذين ركبوا تيَّار هذه الحداثة الشِّعريَّة – خلاف المبدعين الأَوائل الذين امتلكوا ناصية الشِّعر الحقيقي الأصيل – شوَّهوا اللغة العربية وأَساؤوا لها، لعجزهم وقصورهم، وأَقول لفتور همَّتهم وكسلهم واستثقلهم تعلم لغتهم للوقوف على أُصولها ومبادئها، ولذلك يقول: «لئن غفرنا – الأوائل – تجديدهم فليس في ميسورنا الغفران لمن قلَّدوهم وساروا خلفهم، لأَنَّهم – لم يعلمون – أَشدُّ فقراً في لغتهم، وأَكاد أَقول: وفقراً في عواطفهم وأَحاسيسهم وأَفكارهم،على الرغم مما يحيطون به شعرهم بهالة من المعاني الغائمة والأفكار المبهمة والأَلفاظ الرَّكيكة الضَّحلة التي لا يمكنها بحال أن تفتح آفاق المستقبل أَمام شعرنا، لأَنَّها تجافي نموذجه الفنِّي وما يتطلَّبه هذا النموذج من قواعد والتزامات لغويَّة وفنِّية تساعد الأَثر الشِّعري على إيقاظ عواطفنا وإخصابها».

ولذلك لا يتردَّد أَبداً في القول: «أَنا ضدُّ هذه البدعة التي ابتدعوها وسمُّوها الشِّعر الحر، فضلُّوا وأَضلُّوا، وأَتوا بشعرٍ رديءٍ مهلهلٍ ضحلٍ هجين، بصيغٍ لا عربيَّةٍ ولا أَعجميَّة (صراع...- ٤٥)». ولا عجب أَن ينفي عن مثل هذا الكلام الصيغتين؛ العربية والأَعجمية، ليس تشبيهاً بالغراب الذي أَراد أَن يخرج من إهابه بتقليد غيره، حتَّى

إذا عجز عن ذلك حاول أن يعود إلى أَصله فلم يستطع، وإنَّما لأَنَّ هذا الكلام أَعجمي الطَّابع والسِّمات والأُسلوب، ولكنَّه باللفظ العربي، فلا هو عربي ولا هو أَعجمي. ولذلك فإنَّ «العودة إلى الشكل (المدرسي – الكلاسيكي) عودةٌ إلى النُّضج والحفاظ على جمال لغتنا وسحرها (صراع... – ٤٨)» لأَنَّ هذا الشِّعر القويم «يشهد لنفسه بأَنَّه منقطع القرين، يسترق القلب بعذوبة جرسه، وحسن بيانه، وصدق تعبيره – خلاف – الشِّعر الحديث الذي تنطق به أَلسنه المخانيث (الأخطل الصغير – ٢٧)».

دون أَن يعني ذلك – وقد بيَّنا هذا – أَنَّه ضدَّ التجديد والحداثة، ولذلك سرعان ما يعلن إعجابه وحبَّه لكلِّ جديد أَصيل يعمِّق أَصالتنا ويُغني تراثنا، وهذا هو يقتل: «إنِّي لأَشمت بالشعر الحديث يقهره شاعر (كلاسيكي – مدرسي) بحفاظه على روح الشِّعر في صفائه ونقائه وديباجته... فكان الشَّاعر عمر النَّص بمثابة ردٍّ يفضح ولا ريب هذا الشِّعر الحديث وأَغلب الآخذين به... لولا بعض المجدِّدين **الموهوبين كالقباني والبياتي والسياب ونازك الملائكة**... وأَضرابهم، وهم قلَّة استطاعوا أَن يطوِّعوا بحور الشِّعر، وينوِّعوا القافية، مع الحرص على لغتنا والحفاظ على الأُسلوب الجزل الذي لا يستقيم شعرٌ بدونه (دراسات أَدبية – ١٠٤/٣٩)».

الحياة موقف

وأَخيراً لا بدَّ أَن نسجِّل للأُستاذ **سعد صائب** هذا الموقف الرَّائع الذي توَّج به صدق ولائه لعروبة وانتمائه لها، ليؤكِّد أَنَّ حرصه على تراثنا وأَصالتنا ليس مجرد كلام تذروه الرِّياح، وإنَّما هو موقف ومبدأ والتزام:

طَلَبَتْ هيئة الإذاعة البريطانية إلى الأُستاذ **سعد صائب** الإسهام في بعض برامجها الثقافية، فكان ردُّه التالي:

الأُستاذ **نبيل حلمي اسكندر**

«المشرف على البرامج العامة والأَحاديث الثقافية بالقسم العربي – هيئة الإذاعة البريطانية».

تحية طيِّبة وبعد:

إشارة إلى كتابكم المؤرخ في ١٩٨٥/٨/٩م المتضمِّن دعوتي للإسهام في أحاديث (القسم العربي) الثقافية والأَدبية، أُوضح لكم ما يلي:

لقد قضيت من عمري الأَدبي خمسين عاماً لم أُذع في محطَّة أَو أَنشر في مجلَّة أَجنبية تنطق بالعربية... فهل أُتيح لهذه الإذاعة – التي كان أَصحابها الإنكليز – سبب محنتنا في فلسطين، إغرائي بالحديث فيها ولم ملَّكتني الملايين ؟

كلاَّ وحقِّ عروبتي

أَنا الذي ما خطر بقلبي ساعة أَن أَرتاح إلى الازدواجية عند سواي طوال حياتي، فكيف يرتاح إليها أَدبي وقد جعلته مثالاً يحتذى لقيمي ومثلي لا يحيد عنها ؟...

ختاماً أَرجو قبول عذري مع صادق تحيَّتي...

سَعد صَائِب

آثاره

ذكرنا في سياق الكلام معظم كتب أُستاذنا المطبوعة والمخطوطة، ولذلك سنقتصر الآن على تعداد ما لم يسبق ذكره.

١. طريق الخلاص – ترجمة – دمشق – ١٩٤٢م.

٢. في ظلال الوعي – دار اليقظة العربية– دمشق – ١٩٥٢م.

٣. وزارة الزراعة في عهدها الجديد – وزارة الزراعة– دمشق – ١٩٥٢م.

٤. صراع مع الغرب في ضحارته وتياراته الفكرية مكتبة النوري– دمشق – ١٩٥٣م.

٥. القبس الحي – مكتبة النوري – دمشق – ١٩٥٤م.

٦. خطرات في تراثنا الاجتماعي وأثره في الزراعة – غرفة زراعة الحسكة – ١٩٥٥م.

٧. هذا العالم العربي – التوجيه المعنوي – دمشق – ١٩٥٨م.

٨. هيولى – دار الثقافة – دمشق – ١٩٥٨م.

٩.من مآثر العرب – التوجيه المعنوي – دمشق – ١٩٥٩م.

١٠.خطرات فكر – دار الفن العالمي – دمشق – ١٩٦١م.

١١.رجال للبيع – قصص مترجمة – دمشق – ١٩٦٦م.

١٢.من أَعمال لوقيانوس السمياطي – وزارة الثقافة – بغداد – ط١: ١٩٧٩م – ط٢: ١٩٨٨م.

١٣.قضية ألدومورو– (ترجمة) – دمشق – ١٩٨٠م.

١٤.الشيوعية الأوربية والدولة – (ترجمة) – دمشق – ١٩٨٠م.

١٥.بلد الورد – مع كتاب سوريين – دار الثقافة – دمشق – ١٩٨١م.

١٦.حديث الفضاء – ديوان للشاعر اللبناني جوليان حرب – دار الرائد العربي – بيروت – ١٩٨٥م.

١٧.محاورات لوقيانوس السمياطي – الجزء الثاني – دار طلاس – دمشق – ١٩٨٨م.

١٨.مختارات من شعر المتنبي في الحرب والفروسية – الإدارة السِّياسيَّة . دمشق . ١٩٩٤م.

١٩.رسول الله في السماء – مخطوط.

٢٠.أَدركته حرفة الأدب سيرة ذاتية – مخطوط.

٢١.أَوتار متقطِّعة – مخطوط.

٢٢.شاعرات وشعراء سوريون بالفرنسية – مخطوط.

٢٣.كلمات في الفوح والتوح – مخطوط.

٢٤.أَحاديث الصحافة – مخطوط.

٢٥.دروس في المجتمع العربي – مخطوط.

٢٦.مع الكتب الزراعية – عرض وتحليل – مخطوط.

٢٧.الفروسية والبيطرة لأبي حزم بن يعقوب الحنبلي – تحقيق – مخطوط.

٢٨.صوت الجبل – دراسات أدبية – مخطوط.

٢٩.روادنا في الفنون التشكيلية – مخطوط.

٣٠.حكايات عربية – مخطوط.

٣١.محاورات لوقيانوس السمياطي – الجزء الثالث – – مخطوط.

٣٢.أضواء وظلال – مخطوط.

٣٣.رؤى – خواطر، عزمي موره لي – مخطوط.

٣٤.نفحات الأمس – قصائد – سلمى الحفار – مخطوط.

٣٥.مراهقة – قصائد – ديزي موصللي – مخطوط.

٣٦.قصائد لبابل – ديوان كمال إبراهيم – مخطوط.

٣٧.طقوس العنف – ديوان للشاعرة اللبنانية أندريه شديد – مخطوط.

٣٨.قصائد للثورة الفلسطينية – للشاعر الغيني زومو– مخطوط.

٣٩.أزهار وأشواك – قصائد – أُديت ديب أبو داوود – مخطوط.

٤٠.كلمات وأقوال – قصائد – نورس مرقص – مخطوط.

٤١.القلب المعلق – قصة طويلة – أندريه شديد – مخطوط.

٤٢.الظل الحارس – قصائد – الشاعر الجزائري محمد ديب – مخطوط.

٤٣.قيس وتغلب في الشعر العربي – مخطوط.

عبد المعين الملوحي

شمولية الإبداع والثقافة

شعرت عندما التقيته أَوَّل مرَّة وكأنِّي أَعرفه منذ سنوات طويلة، لقد عرفته باحثاً وشاعراً ومحقِّقاً... ولكنِّي ما خلت إلاَّ أنِّي أَعرفه شخصيَّاً، ولعلَّ صدقه فيما يكتب، وانبثاق تعابيره وآرائه من عمق خلجات قلبه، هو الذي جعلني لا أَجد فارقاً بينه وبين أَفكاري المسبقة عنه، وتلكم في حقيقة الأَمر مأثرة قلما نلقى ما يشابهها في خضمِّ أَمواج النتاجات الأدبية المتلاطمة، حيث البون شاسع، والشرخ عميق، بين المبدع وما يبدع، بين الذات وتجلِّياتها، ولنقل بأبسط تعبير: بين القول والفعل. و**الأستاذ عبد المعين الملوحي** واحد من قلَّة استطاعت أَن تسلم بل أَن تُقصي شبح الثنائية الفصامية عن نفسها.

وكما أَنَّ **الملوحي** واحد من قلَّة أَبرأها الله من ازدواجية الشخصيَّة الثقافية، كذلك هوواحد من قلَّة قُيِّضت لها أَكثر من ملكة لإبداعية، وإن تباينت هذه الجوانب غزارة إنتاجية، وسويَّة، فهذا أَمر جدُّ طبيعي، إذ المبدع في ضرب أَدبي واحد تتفاوت سويَّات آثاره بالضرورة لا بالاختيار، فكيف لو تعدَّدت الجوانب الإبداعية، وكان من العسير الجمع بين ملكتين على درجة أَو متقاربة من التمكن كما يقول **ابن خلدون** ؟ولكن ودون أَن يقلل ذلك شيئاً من قيمة التراث

الهائل الذي قدَّمه **الأُستاذ الملوحي**، والذي بلغ حتَّى الآن مئتين وسبعين كتاباً، ما بين مخطوط ومطبوع، في مختلف أَوجه النشاط الأَدبي؛ ترجمة وتحقيقاً وجمعاً وتأليفاً نقديَّاً وشعرياً وقصصيَّاً...

يعقِّب **الأُستاذ الملوحيُّ** على تعدد ملكاته بنوع من الدعابة – مشيراً إلى تعدد مرضعاته: «لقد قلت إنَّ دمي تختلط به كلُّ دماء العالم، ولذلك فلا عجب أن أَنتقل من أَدب إلى أدب كما تنقَّلتُ في الرضاعة من امرأة إلى امرأة».

محطَّات في حياته

وإن كان **الملوحيُّ** علماً سامقاً من أَعلام الفكر العربي المعاصر، قلَّ وندر أَن تجد مثقَّفاً لم يسمع به، ولو سمعاً على أَقلِّ تقدير، فإنَّ ثمة محطَّات مهمَّة في حياته قد لا يعرفها البعض، بل مهما يكن من أَمر، فإنَّنا نستحسن إيرادها للتاريخ والذكرى.

- ولد في حمص عام ١٩١٧م.
- بدأَ النشر بقصيدة نشرتها جريدة أَلف باء الدمشقية (الساقط في البكالوريا) عام ١٩٣٦م.
- نال الشهادة الثانوية في دمشق عام ١٩٣٨م.
- بدأ التدريس في قرية معضَّمية الشَّام (ريف دمشق) عام ١٩٣٨م.
- درس في دار المعلمين الابتدائية ١٩٣٨ / ١٩٤١م.

. تابع دراسته في دار المعلمين العليا عام ١٩٤٢م.

. درس في جامعة القاهرة وتخرج فيها عام ١٩٤٥م.

. أَوَّل كتاب نشره هو: (ذكريات حياتي الأدبية، **لمكسيم جوركي**) في القاهرة عام ١٩٤٥م.

. درَّس اللغة العربية في مدارس حمص وحماة واللاذقية.

. عمل مفتشاً للغة العربية في المنطقة الوسطى.

. انتقل إلى وزارة الثقافة وعُيِّن مديراً للمركز الثقافي في حمص عام ١٩٦٠م.

. ثم مديراً للمركز الثقافي العربي بدمشق، فمديراً للتراث العربي في وزارة الثقافة حتَّى عام ١٩٦٤م.

. عُيِّن بعدها مديراً للمراكز الثقافية العربية في القطر حتَّى عام ١٩٧٠م.

. ثم مستشاراً في القصر الجمهوري حتَّى إحالته إلى التقاعد عام ١٩٧٦م.

. دُعيَ إلى الصين ونال لقب أُستاذ شرف في جامعة بكين عام ١٩٧٧م، وهوأَوَّل لقب يُعطى في الصين لأَجنبي، ولكنَّه اضطر مرغماً للعودة إثر مرضه عام ١٩٧٨م.

. عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

. عضو اتحاد الكتاب العرب.

شخصيَّته

إنَّ أَوَّل ما يلفت النظر من خصائص شخصيَّته وسماتها المميزة هو الثقة بالنفس، التي تتجلَّى على ملامح وجهه بصورة واضحة، ويؤكِّدها أسلوبه في الحديث والتعبير، حتَّى ابتسامته لا تخلو من الدلالة على هذه الثِّقة، ولعلَّ هذه الثقة هي الَّتي أَولدت لديه؛ لا حبَّ الصراحة وحسب، بل الالتزام بها في تعامله مع ذاته، ومع الآخرين، وهذه سمة ما أَكثر من يحبُّها ويقرِّظها، وما أَقلَّ من يلتزم بها. الكلُّ يحبُّها، والكلُّ يتهيَّب منها ويتهرب، إلاَّ قلَّة – منهم **الأُستاذ الملوحي** – استطاعت أَن تحقِّق المعادلة الصعبة، على رغم ما تجلبه من متاعب، ولأَنَّ الصراحة عند **الملوحي** طبع لا تطبُّع يجد بدَّاً من تمثُّلها حتَّى في أَثناء كتابته ذكرياته؛ الذكريات التي قيل إنَّها الأُسلوب الذي يلجأ إليه الكاتب لتبيان صفحاته المشرقة وطمس ما ليس يحبُّه ولا يرضاه، وهذا هو يقول: «عندي مذكراتي الشخصية التي نشرت بعضاً منها في مجلة هنا دمشق، لقد عرَّيت فيها نفسي تعرية كاملة، وجعلت عنوان هذه المذكرات الآية الكريمة: { هاكم اقرؤوا كتابيا } ويعني هذا أَنِّني أُقدِّم هذا الكتاب في يوم الحساب فليست هناك زاوية نفسيَّة أَو شخصيَّة أَو اجتماعية إلاَّ نشرتها أَو كتبتها في هذه المذكَّرات».

ولعلَّ من أَبرز ملامح شخصيَّة **الأُستاذ الملوحي** نزعته الإنسانية العارمة؛ قولاً وفعلاً. ولذلك لقي عنتاً وحقداً من الطبقات البرجوازية التي كان يقضُّ مضاجعها بالتصاقه بالكادحين المسحوقين، والتزامه بقضاياهم والدفاع عنها، وفي ذلك يقول: «منذ كنت طفلاً شعرت بالفروق الاجتماعية بين الناس، وقد سرَّعت معاناتي الاجتماعية في انضمامي إلى صفوف النضال الاجتماعي والوطني على السواء... لقد شاهدت بأُمِّ عيني الفقراء يتساقطون صرعى في الشوارع تحصدهم حُمَّيات الملاريا والتيفوئيد لأَنَّ ظروفهم في غاية السوء، وجهودهم ودمهم يمتصُّها الإقطاعيون... لذا انحزت إلى اليسار».

وعلى رغم بعض التغيرات التي طرأت على فكر **الملوحي** إلاَّ أَنَّ نزعته الإنسانية ظلَّت هاجسه الأَساسي، ومبدأه الذي لا يقبل أَيَّ تنازل فيه، فحبُّه للإنسان طبع ليس عادة، يعيشه مع كلِّ خفقة من خفقات فؤاده، وهذا هو يعلن بصراحة تامَّة؛ صراحة شيخ قارب الثمانين، غيرما راج ثواباً، ولا خائف عقاباً، قائلاً: «إنَّني أُؤمن بالإنسانية، وأَنَّها ستصبح ذات يوم إنسانية حقَّاً، بعد أَن مرَّت بتجارب كثيرة، من الوحشية والهمجية والاستغلال، وأَنا أُؤمن كلَّ الإيمان بوحدة الشعوب، وحقِّها في تقرير، وحقِّها في الحرية والعدالة، ولذلك فإنِّي أُؤمن بالاشتراكية، وبأَنَّها ستعمُّ العالم كلَّه، إيماناً مطلقاً،

وأَعني بالاشتراكية معناها الواسع، بمعنى العدالة الاجتماعية وحقِّ كلِّ فرد في أن يعيش ويجد لنفسه مسكناً وخبزاً وكتاباً...

من الإلحاد إلى الإيمان

أَثار انتباهي عندما دخلت إلى مكتبه تمثالٌ صغيرٌ **لفلاديمير إيليتش لينين** الغني عن التعريف، ولما هممت أَن أَسأله إن كان من قرابة فكرية بينهما، أَجابني قبل أَن أَتكلم، مدركاً بحدسه السليم سؤالي:

– إنَّني شيوعي، أُؤمن بالله وأُصلِّي.

فنظرت إليه بنوع من الدهشة وقلت:

– وكيف توافقت لديك هذه التركيبة ؟!

قال: لقد كنت شيوعياً ثورياً، وعضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي عام ١٩٤٣م، ولكنَّني تحوَّلت من الإلحاد إلى الإيمان، نتيجة كشف صوفي، دونما تعصُّب، لأَنَّني أُؤمن بمقولة غاندي الخالدة: «يجب أَن أَفتح نوافذي لتدخل الرياح من الجهات الأربع إلى غرفتي، ولكنِّي لن أَسمح لواحدة منها أَن تقتلعني من جذوري».

وعن هذا التحوُّل يقول في (نجوى حجر): «لقد قضيت عشرين عاماً من الأربعين الأُولى في إيمان مطلق، وقضيت عشرين عاماً أُخرى في جحود مطلق، وأُريد أن أقضي ما بقي من أَيَّامي في إيمانٍ قلبيٍّ ناعم لذيذ، وفي استسلام عقلي هادئ عذب... – ويتابع

قائلاً –: واعترتني رعشة أُخرى... وجعلت أَصرخ بملء فمي كلمات إيمان قديم، وأَحسست أَنَّ كلَّ لفظة في دمي تصرخ: لا إله إلاَّ الله، وأَحسستُ في أعماقي أَنِّي مؤمن إيماناً لا يعدله إيمان، ودخلت وكتبت:

نَظَرَتْ إليَّ الأَربعون وكاد عودي الصلد يُكسر
فوقفتُ أَنظُرُ للسماءِ منادياً: (الله أَكبر)
نَظَرَتْ إليَّ الأَربعون فأصرخت كالثلج شيبي
فوقفتُ أَنظرُ للسماء منادياً: (الله ربِّي)
سأَعود للإيمان يملأُ بَرده عقلي وقلبي
سأَعود أَحملُ في دمي ربِّي وإيماني بشعبي»

وهنا تتجلَّى موضوعية **الأُستاذ الملوحي** حقَّ التَّجلِّي، فقد آمن بالفكر الماركسي، ولكنَّه لم يعتنقه هكذا على عواهنه، وإن سار على ذلك ردحاً من الزمن، فعندما وصل إلى الحق التزمه، واعتنقه، وعندما ارتدَّ عن الفكر المادي لم ينفر من الفكر الاشتراكي، ولم يبتعد عن حبِّ القومية العربية الذي انغرس في قلبه منذ نعومة أَظفاره، لأَنَّ الاشتراكية عدالة، والقومية العربية انفتاح على الإنسانية، وليس في ذلك ما يتعارض مع الإيمان بالله، يقول:

كفرتُ بربِّي أَربعـــين فمذ بدا
بي الشيب خلَّفت الشـــكوك ورائيا
وقال رفــاق الـدرب ضلَّ طـريقهُ
معاذ إلــهي بل تركـــتُ ضـلاليا
قَصَـرت على ربِّي وشـــعبي مودَّتي
فياليـتهم يبـــدو لهم ما بـدا ليا
وآمنـتُ بالإنســـان يبني حضـــارةً
ويهــدم في الإنســـان ما كان باليا

ثقافته

يكفي حتَّى نقف على اتساع أُفق **الملوحي** الثقافي والمعرفي، ومدى إطلاعه وثقافته أَن نعلم أَنَّه وضع ما ينوف عن مئتي وسبعين كتاباً في مختلف أَلوان النشاط الأدبي، وتتجلَّى أَهمية هذا النتاج الكبير – في إبراز مدى إطلاع **الملوحي** وثقافته أَكثر – إذا ما علمنا أَنَّ الغالبية العظمى من الناس تعيش عشرات السنين، وتموت، ولا تطَّلع على نصف، بل ربع، بل أَقلِّ من ربع عدد الكتب التي قدَّمها لنا **عبد المعين الوحي**.

فماذا قرأ، ومن أين نهل ؟

يحدِّثنا عن ذلك فيقول: «كنت أَقرأ كلَّ ما يقع بين يدي من كتب؛ الكتب الدينية والأدبية ودواوين الشعراء والمجلات... درست فقه الدين وفقه اللغة عن الكتاتيب وحفظت القرآن وألفية **ابن مالك**... ولم أَصل

إلى الجامعة حتَّى كنت قد التهمت مادَّة الكثير من كتب التراث العربي، حتَّى إنَّني عندما كنت طالباً في **جامعة الملك فؤاد** بالقاهرة عام ١٩٤٢م، وكان يُدَرِّسني مادة الأدب الدكتور **شوقي ضيف** الذي سأل ذات مرَّة: من منكم قرأ كتاب الأغاني ؟ وأطلب من **عبد المعين** ألاَّ يجيب، فلم يجبه أَحد، فالتفت إليَّ قائلاً: إنَّني متأكِّد أَنَّك قرأته يا **عبد المعين**، فقلت له: والله يا أُستاذ، لما حصلت على الثانوية كنت قد قرأته للمرة العاشرة، فقال بتواضع العلماء: والله يا **عبد المعين** إنَّني أَنا **شوقي ضيف** لم أَقرأ كتاب الأغاني إلاَّ بعد حصولي على الإجازة.

ويتابع قائلاً: كنت أَجلس على الحصيرة حتَّى تصبح ساقي حصيرة أُخرى، ولما أُحاول النهوض أَسقط على الأرض لأنَّ الدوار يلف رأسي، وفي الليل كنت أَضع على منضدة صغيرة (كازاً نمرة ولحد) وأَقرأ حتَّى ينبلج الفجر؛ لقد قرأتُ آلاف المجلدات، ونقبت كثيراً في كتب التراث، وكنت منه أَستوحي العبر، فهوأَرضيتي فعلاً، وقد كانت لي عادة رائعة هي أَن أُلخِّص الكتاب وأَن أُسجِّل بعض أَفكاره وموضوعاته، ولكنَّني ويا للأسف توقَّفت عن هذه العادة الجميلة، واكتفيت بأن أُسجِّل ملاحظاتي في أَواخر الكتب التي أُطالعها، وفي هوامشها، ويا ليتني حافظت على تلك العادة».

ما أَروع هذا الكلام وما أَبدعه، وما أَبعد شبابنا اليوم عن انتهاج مثل هذا السبيل، فبمثل هذا الجد والجهد استطاع **الملوحي** أَن يكون عملاقاً ورائداً وعلماً من أَعلام الفكر العربي المعاصر، ومن أَراد أَن

يكون له مثل هذا الشأن فليس أَمامه إلاَّ هذا السبيل، وبهذا المعنى ينصح أُستاذ تلميذته بعد أَن سأَلته عن سبيل المجد فيقول:

وتسـأَلني كيف الوصول إلى المجدِ
فقلتُ لها شـدِّي الرِّحال إِلى النَّـقدِ
ولن تحصــدي من غير زرعٍ فأَكثري
جهودك إِن شِئتِ المزيد من الحَصـدِ
ولن تحـرزي الآمال دون مَشَــقَّةٍ
ولن تسـبقي إِلاَّ بفضـلٍ من الجـهدِ
فلا تقـبلي دون النُّجـــوم مكانةً
ولا تـتركي سعياً فلا نفع للوعــدِ

شموليَّة الإبداع

طرق **الملوحي** كثيراً من أَبواب فنون الأدب، وكان مُجيداً في كلِّ ما سلكه من جوانب الإبداع، فكان شاعراً وقاصَّاً وباحثاً ومحقِّقاً ومترجماً، وللحقِّ فإنَّه وإن لم تنشر آثاره كلُّها فقد رفد المكتبة العربية وأَغناها - بما نشر - بتراثٍ ثرٍّ جليل، يستحقُّ وقفات لا وقفة، ودراسات لادراسة، ونحن إذ نتقدَّم بهذا الجهد المتواضع الآن فإنَّما نُذَكِّرُ ونشير، إذ من الصعب أَن نستوفي هذه المباحث معالجةَ في هذه العجالة التي نتوجَّه فيها إلى التوثيق أَكثر مما نهدف إِلى البحث بالمعنى الاصطلاحي الدقيق.

ونتساءل بداءة لماذا الشمولية في الإبداع ؟ يجيبنا **الأُستاذ الملوحي** قائلاً: ينبغي على الأَديب العربي أَن يكون شموليَّاً، وإلاَّ فسيبقى في مستنقع، وأَنا أَعتبر الشموليَّة قي الأَدب شرطاً أَساسيَّاً في كلِّ أَديب، ولذلك تجد في كتبي أَلواناً مختلفة من معظم الآداب العالميَّة، وأَنا أَجد نفسي في كلِّ هذه الأَلوان الأَدبية، لأَنَّني شمولي والشمولي يجد نفسه في كلِّ الأَلوان.

ولكن أَين يجد **الملوحي** نفسه أَكثر بين هذه الأَلوان ؟ وأَين يقف بينها؟ أَعني هل يعدُّ نفسه باحثاً أَم شاعراً أَم قاصَّاً أَم محقِّقاً أَم مترجماً ؟ يجيبنا على ذلك بقوله: إِنَّ إطلاق صفة من هذه الصفات عليَّ ليس من اختصاصي، وإِنَّما هومن اختصاص القارئ، ولكنِّي أَعتقد أَنَّني كنت كلَّ ما ذكرت من الصفات ففي مجال التأليف لي أَحد عشر كتاباً أعتزُّ كثيراً بواحدٍ منها هوأَشعار اللصوص وأَخبارهم الذي قضيت في جمعه وتأليفه أَربعين عاماً، ويقع في ستة أَجزاء طبع منها الأَوَّل والثاني. وأَعتزُّ بكتاب آخر طبع مؤخَّراً هومواقف إنسانية في الشعر العربي، وهوردٌّ على الزاعمين بأَنَّ الشعر العربي خال من المواقف الإنسانية، وقد جمعتُ فيه ستين موقفاً تشرِّف الإنسانية كلَّها لا الأُمَّة العربية وحدها.

وفي الشعر لي ثلاث وعشرون مجموعة (ديوان) لم ينشر منها حتَّى الآن سوى أَربع، وفي مجال القصَّة لي مجموعتان هما: طعم التخمة

وطعم الجوع، ومن أَيَّام فرنسا في سوريا. وفي مجال التحقيق لي أَربعة عشر كتاباً مطبوعاً وغيرها مما لم يطبع. وفي مجال الترجمة لي عشرات الكتب المطبوعة وغير المطبوعة، وأَتناول فيها الأَدب الشرقي والغربي على حدٍّ السواء. وفي مجال الأَدب الذاتي نشرت حتَّى الآن أَربعة كتب منها نجوى حجر، وثلج على قبر، والإنسان ذلك المظلوم، وبقيت عندي كتب كثيرة أَهمُّها فيما أَعتقد مذكَّرات حياتي التي كتبتها منذ الخمسينات وتقع في مجلَّدين ولكنِّي لم أَنشرها حتَّى الآن. فهل تريدني بعد أَن ذكرت لك ما قمت به من تأليف وتحقيق وترجمة أَن أَذكر لك الصفة التي أُحبُّ أَن أُوصف بها ؟ لقد عملت على مقدار طاقتي وأَترك الحكم على ما قدَّمت للقارئ. وعلى رغم ذلك أَقول لك: أَنا لست شاعراً ولا كاتباً... وإنَّما أَنا إنسان رمى فأَخطأ، لقد رميت حياتي فأخطأَتها، وأَنا أُردِّد دائماً ما قاله **حافظ إبراهيم**:

لا تَلم كَفِّي إذا السَّيفُ نَبَا صَحَّ مِنِّي العَزمُ والدَّهرُ أَبَى
رُبَّ ساعٍ مُخلِصٍ في سَعيهِ أَخطَأَ التَّوفيقَ فيما طَلَبَا

أَوَّلاً: تجربته الشِّعرية

بلغت أَعماله الشعرية ثلاث وعشرون مجموعة، طبع منها أَربع مجموعات هي: قصيدتان (بهيرة وورود)، والحرب والحب، و**عبد المعين الملوحي** يرثي نفسه، وأُرجوزة الأحفاد وقصر يلدز. أَمَّا ما تبقَّى منها – كما يقول – ما يستحقُّ النشر فعلاً، ومنها ما هوطفولي كُتِبَ في البدايات، قد لا يستحقُّ النشر.

بدأَ حياته الأَدبية بكتابة الشعر، ويرى أَنَّ البدء بكتابة الشعر هوالبداية الطبيعية لكلِّ من يحترف الأَدب، وهو لم يندَّ عن هذه القاعدة، ولو أَردنا تتبع الخصائص المميزة لشعره لوجدنا أَنفسنا، مبدئياً، أَمام النقاط التالية:

آ – النَّفس الشِّعري الطَّويل: يغلب على شعر **الملوحي** طول قصائده، حتَّى بلغ في بعضها ثلاثمئة بيت ومنها المئتين والمئة، وهذا يشير في حقيقة الأَمر – بغضِّ النَّظر عن بعض الاعتبارات – إلى التلقائية والانسيابية في تدفُّق الأَلفاظ والمعاني، وطواعيتها للانسكاب في القوالب الشعرية عنده، بما يوحي بغنى الشاعر ومقدرته الإبداعية، وإن كان بعض النُّقَّاد يميل إلى الاعتقاد – خطأً – بأَنَّ طول القصيدة ينعكس على القارئ مللاً، فإنَّنا نقول: هذا ذنب القارئ الملول لا ذنب الشاعر الملهم، والمتلقي الحقُّ لا يملُّ إلاَّ ممَّا كان بالأصل مملاً. ومهما يكن من أَمر – وإن كان ليس يعنينا هنا خوض غمار هذه المسألة – فإِنَّ النَّفَسَ الشِّعري الطويل مأثرة تحسب للشاعر، دون أَن يعني ذلك أَفضليَّة القصيدة الطويلة على القصيرة بالضرورة، أَو العكس، فتلك مسألة أُخرى.

ب – الإلهام الشِّعري: لا يمكن التنكر البتة لمسألة الإلهام في ضروب الإبداع الفنِّي كلِّها، ولكن لكلِّ مبدعٍ منهجيَّته في تلقي الإلهام، وأُسلوبه في التعامل معه، وعلى العموم يمكن أَن نميِّز في هذا

الصدد – باعتبار – بين نوعين من المبدعين؛ واحد منهما انطباعي يكتفي بتجسيد ما تمليه عليه مُخيِّلته الإبداعية فنيَّاً، دون مساس أَو تغيير أَو تبديل لاحق، لأكثر من غاية ودافع. والفريق الثاني صنعي؛ يعود بالتهذيب والتشذيب والحذف والتعويض على ما قدَّمته الدَّفقة الإبداعية الأولى، ولكلٍّ من هذين الطرفين مثالبه ومناقبه التي ليست ممَّا يعنينا الآن، و**الأُستاذ الملوحي** على ما يبدومن أَنصار الفريق الأَوَّل، وفي ذلك يقول:

«أنا لم أَقل الشعر بإرادتي، بل يقوله شيطاني، أَويخلقه وحيي وإلهامي، أَ سمِّه ما شئت، فمثلاً عندما توفِّيت زوجتي **بهيرة** هربت من حمص قبل انتهاء مجلس الفاتحة، وفي ليلة من الليالي تركت إلى جانبي دفتراً وقلماً، ونمت على الأرض، وإذ بي أَصحو من النَّوم على صوت داخلي كان فيه جَيَشَان، وبدأت أَكتب القصيدة، فإذا هي تنتهي عند الظهر، بعد سبع ساعات متواصلة.

أمَّا قصيدة الرثاء التي كتبتها بابنتي **ورود** فقد كتبتها في القاهرة، وقد نظمت القصيدة وأنا أَكبُّ على وجهي فوق الفراش، وأَستطيع أَن أَروي بهذه المناسبة ما جرى بيني وبين **عصام السرطاوي** وقد كُنَّا معاً في أَحد مطاعم دمشق، كان يحمل معه ديوان **قصيدتان** في رثاء **بهيرة** و**ورود**، وكان يثني على هاتين القصيدتين ويصفهما بالروائع، فقلت له مرتجلاً، وكتبَ ما قلت على علبة السجائر:

وصاحب قال لي والكأس مترعةٌ
وظلَّ يقرأُ كالنَّشوان أَبياتي
هذا هو الشِّعر هزَّتنا روائعهُ
فقلتُ والصِّدق عندي بعضُ عاداتي
لا لستُ أُحسنُ لا شعراً ولا خُطَبَاً
إنِّي أُسجِّل ما تمليه مأساتي

وهذا يعني أَنِّي أَقول الشِّعر لأَنَّه يفرض ذاته عليَّ ولا أَقوم باختصار أَو تزويق أَوغير ذلك، وإنَّما أُقدِّم هذه المادَّة الشِّعرية كما تدفَّقت في داخلي، بمعنى أَنِّي أُسجِّلُ ما يمليه عليَّ الوحي أَو الإلهام الشعري الذي قد يغيب عنِّي شهوراً بعدما يعطيني فاتحة القصيدة فأَتوقَّف عن النظم حتَّى يعود شيطاني ثانية فأُكملها».

جـ – غلبة الرِّثاء: يقول شاعر:

فَكُلُّ مَخلوقٍ وإن عمَّرا لا بدَّ فوق دفَّةٍ يرفعُ

فالموت هوالقدر الذي لا مفرَّ منه، وليس ثمة إنسان لم يمت له عزيز، وهذا **الإسكندر الأكبر** يخفِّف مصاب أُمِّه بموته (قبل أَن يموت) بطريقة لبقة، إذ بيَّن لها أَنَّه لا يوجد إنسان حيٌّ إلاَّ وله ميت. ولكنَّ الشاعر يختلف عن الناس كلِّهم، فهو الأرهف إحساساً، والأشدَّ تأثُّراً، وهو إذ ينظر إلى أَيِّ حَدَثٍ فإنَّما ينظر إليه في مرآة رهافته وحساسيَّته، ولذلك فإنَّ لكلِّ شيءٍ طعماً آخر عنده، وللموت

مع **الملوحي** قِصَّةٌ مريرةٌ، مفعمةٌ بالأسى، فقد فُجِعَ مُبَكِّراً بموت أخيه الذي يكبره، ثم الذي يصغره، ثم زوجته التي وله بها، ثم ابنته، ناهيك عن الأحباب والأصدقاء... يقول:

عَكَفتُ على شِعري أَرود فِجَاجَهُ

فلم أَر في الدِّيــوان إلاَّ المراثيا

بل وكأَنَّه أَدرك بحدسه المبدع منذ بداية الطريق أَنَّ معظم شعره سينصب على الرثاء، وفي ذلك يقول: صدِّقني لقد تنبَّأتُ منذ عام ١٩٣٦م بأَنِّي سأَكون شاعر الرثاء والجهاد حين قلت في قصيدة أَرثي فيها صديقاً، وكان عمري ١٩ عاماً:

ما فيك يا ديوان شعري بسمةٌ

بل أَنتَ قَطرُ دمٍ ونقـع جهادِ

ولم يكتف بالرثاء التقليدي الذي نكاد لا نفتقده عند شاعر، بل تجاوزه إلى تجربة طريفة قلَّت أَمثالها في الشعر العربي والعالمي على السواء، فقدَّم ملحمة طويلة يمكن اعتبارها بحق من عيون الشعر العربي، بل والعالمي، على فرادتها وطرافتها موضوعاً ومضموناً، وفيها يقول مبيِّناً السبب الذي حفزه على رثاء نفسه (أَطال الله عمره):

إذا كان شعري كلُّ شعري مراثيا

فما لي بنفسـي لا أُعِــدُّ رثائيا

ونفسـيَ أَولى أَن تكونَ قصـيدةً

تسيلُ قـوافيها نشــاوى دواميا
وأَقسى المآســي أَنَّني بتُّ راثياً
حياتي وما زالت تَــمُورُ دِمَائيا

د – صدق التَّعبير: وشعره وجداني، صادق، يعبر بأَمانة عمَّا يختلج في أَعماقه من مشاعر، الأَمر الذي يجعل هذا الشِّعر قريباً من قلوب المتلقين، سريع التَّأثير فيهم، لأَنَّ ما خرج من القلب مستقره القلب، وما صدر عن اللسان لا يجاوز الآذان، وهذه حقيقة تتجلَّى لنا دائماً، ويحدِّثنا **الملوحي** عمَّا كان من الدكتور **جميل صليبا** عندما أَخذ قصيدة **بهيرة** ليكتبها بخطِّ يده، ولم يقبل أَن يكتبها **الملوحي** له لشدَّة إعجابه بها، ليقول له في اليوم التالي، وبالحرف الواحد: والله يا **عبد المعين**،لم أَسمع لشاعر غربي ولالشرقي، ولا قديم ولا حديث، أَعظم من هذه القصيدة، يا **عبد المعين** لقد ضَمِنتَ لقصيدتك الخلود... تصوَّر أَنَّني عندما قرأتها لزوجتي قالت: ليتني يا **جميل** أَنا التي مِتُّ ورثيتني أَنت بهذه القصيدة، إذن لخلَّدتني إلى الأبد.

ثانياً: تجربته القصصية

أَمَّا تجربته القصصية فهي وإن كنت متواضعة – كميَّاً – بالقياس إلى نتاجاته الأدبيَّة المختلفة، فهي لا تقلُّ من الناحية الأَدبيَّة والفكرية والوثائقية، أَهمِّيَّةً ومكانةً عن ضروب النشاط الأُخرى، وعلى العموم فإنَّ التجربة القصصية شأنها شأن أَيِّ تجربة إبداعيَّة أُخرى تتسم بنوع من الخصوصية الأُسلوبية والفكرية التي تميِّز هذا القاص عن ذاك، ولقد أَراد

الملوحي في مجموعتيه القصصيَّتين «طعم التخمة وطعم الجوع، وأَيَّام فرنسا في سوريا» أَن يجعل من قصصه خطاباً عقائديَّاً (أَيديولوجيَّاً) يعكس تفكيره وانتماءه السياسي بصورة مباشرة، ولا سيَّما أَنَّ مجموعته الأُولى قديمة، كتبها إبَّان اعتناقه الفكر الماركسي، الموسوم بالثوريَّة، الدَّاعي إلى الالتزام في الأدب والفن، فكانت تجربته القصصيَّة هذه ضرباً من محاولات تسييس الأَدب واحتوائه ضمن منظومته العقائدية، وهذا لا يعيب الأَديب أَوالقاص في شيء – على الأَغلب – إذ لكلِّ باحث رؤياه التي يعتنقها ويعتقدها الأَصحَّ والأَقوم، وينبري للتبشير بها والدفاع عنها، منتهجاً السبل التي يراها مناسبة.

يقول في (رسالة إلى جندي تركي قتيل) من (طعم التخمة وطعم الجوع): «لا تحدِّثني عن حياتك فأنا أعرفها أكثر منك، أنا أعرف من يديك هاتين الخشنتين الغليظتين أَنَّك فلاَّح من الأناضول، ترك لك أَبوك حقلاً عندما مات وكنت في العشرين من عمرك، ولكنَّك بعت الحقل، وبعته بسعر لم تحلم به في حياتك قط، بعته حتَّى لا يبقى حقلاً، فلوبقي حقلاً لم تبعه، ولكنَّك بعته ليكون مطاراً، ليكون قاعدة عسكريَّة أَمريكيَّة في بلادك».

وينهي قصَّة (مغربي على ضفاف نهر يالو) من المجموعة ذاتها، قائلاً: «إنَّ عظام ظهري، وهي تطقطق، لتصرخ في صوت عال مخيف: أَيُّها العرب: لا تكونوا مع الاستعمار إن لم تستطيعوا أَن تكونوا مع الحريَّة». وهذه دعوة واضحة إلى الأممية التي كان وما زال يؤمن بها – دون

تعارض مع دعوته القومية – استوحاها من إشراك الفرنسيين أشقَّاءنا المغاربة معهم في قتال الفيتناميِّين والكوريِّين.

ولا أعتقد أنَّنا بحاجة إلى مزيد من الشواهد التي يمكن الرجوع إليها بيسر في هاتين المجموعتين، ولذلك فإننا نتفق مع الأُستاذ **عبد الله أبوهيف** في قوله: «إنَّ نظرة تاريخية نقديَّة إلى هذه القصص – قصص **الملوحي** – تفيد أمرين هما:

الأوَّل: تصير القصة عند **الملوحي** إلى مكمل لفاعلية مؤلفها السياسية والعقائدية، فالقصَّة خطاب عقائدي تبشيري مباشر ولا يحتاج هذا الأمر إلى توكيد.

الثَّاني: تدلُّ القصَّة عند **الملوحي** على نمط قصصي ساد زمناً طويلاً في القصَّة العربية الحديثة هوالاعتماد على المقال القصصي، والاستمداد الشخصي (ولومن حوادث استثنائية). ومحاولة الإيهام (حين يتدخل المؤلف بسبب أوبدون سبب في سياق القصَّة). والتركيز على وظيفة القصَّة بالدرجة الأُولى.

ثالثاً: إحياء التراث

بذل **الملوحي** جهوداً جليلة وكبيرة – تُقَدَّر فيه – في إحياء التراث العربي، ويمكن الحديث عن مساعيه في هذا الإطار على ثلاثة صعد، أوَّلها صعيد البحث والدراسة، وثانيها الجمع والتعليق، وثالثها التحقيق، فماذا قدَّم لنا على كلّ صعيد ؟

بادئ ذي بدء لا بدَّ من العودة إلى تأكيدنا السابق بأنَّنا لا نهدف إلى تناول ما تناوله **الأستاذ الملوحي** كلَّه، فهذا أمر يطول بنا، ولا يمكن أَن نفيه حقَّه في هذه العجالة، ذلك أنَّ بغية دراستنا أقرب إلى التوثيق منها إلى البحث المنهجي الدقيق، ولذلك فإنَّنا سنتناول – كما فعلنا – كلَّ جانب بإلماعات مقتضبة، موجزة، تكون بمثابة دليل ومرشد للباحثين الذين سيعنون بدراسة فكر **الملوحي** وآثاره، التي تستحقُّ أَن يفرد لها أَكثر من بحث ودراسة، كما أَنَّنا سنصب حديثنا على نماذج مُعيَّنة من المطبوع تحديداً، تاركين أَمر المخطوطات إلى حين طباعتها بإذن الله، وهي ما يشكّل الهمَّ الأكبر **للأُستاذ الملوحي** حاليَّاً.

آ . في البحث والدراسة: نجدنا على هذا الصعيد أَمام كتابين مهمَّين هما الفكر العلمي عند **ياقوت الحموي**، والأدب في خدمة المجتمع، ففي الفكر العلمي عند **ياقوت الحموي** الذي استنبطه من كتاب **معجم البلدان**، يبدو لنا أثر شمولية ثقافتة الواضح في عنايته وتدقيقه، وتعمُّقه في سبر وتبيان جوانب الفكر العلمي عند **ياقوت الحموي** حتَّى ليستحقَّ هذا الكتاب فعلاً . كما يقول **عبد الإله نبهان** «أَن يتصدَّر كلَّ طبعة من طبعات **معجم البلدان**» كمدخل منهجي وعلمي للمعجم ولفكر **ياقوت الحموي**.

ب . في الجمع والتعليق: لم تقتصر جهوده في هذا المجال على جمع مواد الموضوع الواحد، أَو آثار الشاعر، وحسب، وإنَّما تعدَّاها إلى تقديم الشروح والتعليقات المهمَّة والإضافات المناسبة بما يُغني الموضوع

المجموع، ويرفده بمزيد من الشواهد والإيضاحات، حتَّى ليخرج بذلك من إسار الجمع إلى إطار التأليف، لتغدوبذلك كثير من الكتب التي جمعها مؤلفات أكثر منها (مجموعات كانت متناثرة) والكتاب الذي يعتزُّ به **الملوحي** أكثر من كتبه كلِّها هوكتاب أشار اللصوص وأخبارهم الذين قضى في تتبع آثارهم في بحور كتب التراث المنشورة والمخطوطة نحوأربعين عاماً، فقدَّم لنا كتاباً ضخماً ورائعاً بلغ ستة مجلَّدات، طُبع منها الأوَّل والثاني، وما تبقَّى ينتظر رحمة المطابع.

ولعلَّ جهوده في هذا المجال هي الأكثر غِنًى، والأفضل إثماراً، إذ نجد كثيراً من الكتب المهمَّة هنا، فنجد مثلاً (المنصفات) وهوكتاب فريد، لعلَّنا لا نجد له مثيلاً في آداب العالم كلِّها، وموضوعه الأشعار التي قالها الشُّعراء العرب في إنصاف أعدائهم في الحرب. ونجد أيضاً كتابه (مواقف إنسانية في الشِّعر العربي) الذي جاء دفاعاً عن العروبة، وردَّاً على أعداء الأُمَّة العربية، والمغرضين من مستشرقين ومستغربين، الذين يدَّعون أنَّ الشِّعر العربي خال من المواقف الإنسانية، الأمر الذي دفع **الأُستاذ الملوحي** إلى الاعتكاف ردحاً من الزمن ليطلع علينا بهذا الكتاب الذي جمع ستِّين موقفاً إنسانياً في الشعر العربي، تُشرِّف الإنسانية جمعاء، لا الأُمَّة العربية وحدها، ومن الكتب الأُخرى في هذا المجال: الشُّعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، نظير زيتون الإنسان، ديوان **فايز أحمد فايز**.

جـ . في التحقيق: لا يقلُّ جهد **الملوحي** في التحقيق عن جهد الباحثين، بما بذله في تدقيق النصوص ومراجعتها على الأُصول المتوفرة، منتهجاً النهج العلمي في أُصول التحقيق ومراجعة النصوص، ولا يسعنا في هذه العجالة إلاَّ أَن نتقدَّم له بجزيل الشكر والامتنان على ما سلخه من جهد ووقت لإحياء تراثنا العربي القديم الذي غطَّى معظمه غبار الزمن والإهمال حتَّى أَوشكنا أَن ننساه، فنبَّه الدارسين إلى هذه المسألة، وما أَثمرته هذه الجهود من توفير المواد التراثية . التي أَغنت المكتبة العربية . وتقديمها للباحثين على طبق من ذهب؛ جاهزة ناجزة.

وممَّا قدَّمه على هذا الصعيد: ديوان **ديك الجن الحمصي**، ديوان **عروة بن الورد** شاعر الصعاليك، الحماسة الشجرية **لابن الشجري**، اللاميَّتان: لاميَّة العرب **للشنفرى** ولاميَّة العجم **للطغرائي**، ما غاب عنه المطرب **للثعالب**ي، نظم اللآل في الحكم والأمثال، تحفة المجاهدين في العمل بالميادين، التنبيه على حدوث التصحيف **للأصفهاني**، في علم الفروسية، لأزهية في علم الحروف **للهروي**.

رابعاً: جهوده في الترجمة

انتبه **الملوحي** إلى افتقار المكتبة العربية للآداب الشرقية فصرف عنايته إلى آداب الشرقيين الذين نتشاطر وإيَّاهم جلَّ الهموم ونعاني وإيَّاهم من مشكلات مشتركة، فترجم تاريخ الأدب الفيتنامي من أوَّل عصوره حتَّى الآن، وكذلك تاريخ الشعر الصيني، وغيرهما. وفي ذلك يقول: «الذي دفعني إلى ترجمة الآداب الشرقية أمران؛ أَوَّلهما أَنَّنا لا

نعرف شيئاً عن آداب تشترك معنا في الشرق العظيم بينما نحن نعرف كثيراً عن آداب الغرب، وثانيهما أَنَّهم في الصين والفيتنام يحملون هموماً وطنية تشبه همومنا، فهم يناضلون من أَجل وحدة بلادهم وحرِّية شعبهم».

ولكنَّ ذلك لم يمنعه من ترجمة الآداب الغربية، فترجم عن الألمان والسويديين وغيرهم، معياره في ذلك الفائدة المرجوة من الكتاب المترجم للقارئ العربي، وفي ذلك يقول: «إنَّني أَقرأ الكتاب فإذا وجدت ما يستحقُّ إطلاع الشعب عليه أَقوم بترجمته، وللحفاظ على المصداقية أُترجمه مرَّتين، أُولاهما أَتقيَّد فيها بالنصِّ كاملاً، والترجمة الثانية أُعطيها الأُسلوب العربي كيما يشعر قارئ الكتاب أَنَّه يقرأ بالعربية لا بالأَجنبية».

وأَخيراً:

إِنَّ ما أَسلفناه لا يعدوكونه إلماعات سريعة وإشارات مقتضبة إلى عالم **عبد المعين الملوحي** الشخصي، والإبداعي، غير مستوفين كامل الجوانب، ولا متمِّمين ما تناولناه من مباحث، آملين أَن تتاح لنا العودة إليها، نحن أوغيرنا، مرَّة أُخرى، كيما نوفي هذا الرائد بعض حقِّه من العناية بشخصه وفكره، ونتساءل ـ مع غيرنا ـ للمرَّة الأَلف بعد الأَلف:

متى نكرِّم العظماء وهم أَحياء ؟!

شَاكِر مُصطَفَى

مُؤَرِّخُ الأُدَبَاء وأَديبُ المؤَرِّخين (*)

(*) – نشر هذا الفصل في مجلة الثقافة الشهرية – دمشق – عدد تشرين الأول عام ١٩٩٣م.

كما زخرت حياته بالمحطَّات المتنوعة الكثيرة كذلك تنوَّعت ألوان الورد وأطيابه في حديقة فكره الغنَّاء؛ نعتوه بالمؤرِّخ الأَديب، وأَديب المؤرخين ومؤرِّخ الأُدباء، وعلاَّمة المؤرِّخين، ومؤرِّخ المؤرخين، ورائد الدراسات الأدبية، وأُستاذ الأَجيال، ومنصف التاريخ العربي الإسلامي.

لا شكَّ في أَنَّ **الأُستاذ شاكر مصطفى** يستحقُّ ذلك كلَّه عن جدارة كاملة، ذلك أَنَّ له في كلٍّ ممَّا سبق السهم الأَوفر نصيباً، فهو أَديبٌ مُجيد، ومؤرِّخٌ رائدٌ للأدب، وصاحب الجهود الجليلة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي لتخليصه ممَّا أُلحق به وعلق من شوائب ودسائس ومُشوِّهات، مُحقِّقاً في ذلك نقلة نوعية من تدوين الحوادث التاريخية إلى علم التاريخ وفلسفته، وإليه يرجع الفضل في تعريفنا بأَدب أَمريكا اللاتينية، بمنهج متميِّز وأُسلوب مُثيرٍ للإعجاب، يقول الدكتور **محمد الرميحي** في تقديمه لكتاب **الدكتور شاكر مصطفى**: *تاريخنا وبقايا صور*: «ما أمتع أَن تقرأ **لشاكر مصطفى** ! فبعض الكتاب عندي لهم طابع تخصُّصي، فهذا فلسفي وذاك سياسي،

وآخر اجتماعي، ورابع علمي، وغيره تاريخي، أَمَّا حين تقرأ **لشاكر مصطفى** فتجده كلَّ أُلئك جميعاً، ليس ذاك فقط بل وفي أُسلوبه من الطلاوة ما يذكرك بالماء البارد القراح في يوم قائظ».

بطاقته

. مؤرِّخ وأَديب وباحث.

. ولد بدمشق سنة ١٩٢١م.

. حصل الشهادة الابتدائية عام ١٩٣١م.

. حصل الشهادة الثانوية عام ١٩٣٩م.

. حصل على الإجازة التاريخ من جامعة القاهرة عام ١٩٤٥م.

. في عام ١٩٤٦م عين مدرساً في ثانوية درعا، ثم انتقل إلى التدريس في ثانويات دمشق. ثُمَّ ما لبث أن سمي مديراً للمعارف في حوران، فمديراً لدار المعلمين الابتدائية في دمشق، فأميناً لجامعة دمشق حتى عام ١٩٥٥م.

. في الخمسينات شارك في تأسيس دار الروَّاد لطباعة والنشر والتوزيع.

. شارك بتأسيس رابطة الكتاب العرب (نواة اتحاد الكتاب العرب).

. في عام ١٩٥٦م سُمِّي مستشاراً ثقافياً في السفارة السورية في القاهرة.

. في عام ١٩٥٧م سمي قائماً بالأعمال في السودان ١٩٥٧م.

. في عام ١٩٥٨م سمي وزيراً مفوضاً في العاصمة الكولومبية بوغوتا ١٩٥٨م.

. في عام ١٩٦١م سمي قنصلاً عاماً في البرازيل حَتَّى عام ١٩٦٣م.

. في عام ١٩٦٤م سمي مديراً عاماً للشؤون السياسية في وزارة الخارجية ١٩٦٤، فأميناً عاماً بالوكالة.

. في عام ١٩٦٥م سمي وزيراً للإعلام حتى ١٩٦٦/٢/٢٣م.

. في آب من عام ١٩٦٦م سافر إلى الكويت، وعمل أستاذاً للتاريخ العربي الإسلامي في جامعتها، وظل في هذا العمل نحو ربع القرن.

. في عام ١٩٧٠م نال شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة جنيف / سويسرا.

. بعد عودته بالدكتوراه عين عميداً لكلية الآداب في جامعة الكويت.

. انتدبته الكويت ليشغل منصب الأمين العام المساعد في جامعة الدول العربية في تونس للجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية.

. بعد انتهاء مهمته في الجامعة العربية سمي مستشاراً في الديوان الأميري في دولة الكويت.

. أَشرف على مشروعات قومية كثيرة.

. مستشار تحرير مجلة الثقافة العالمية التي تصدر في الكويت.

. عضو هيئة تحرير سلسلة عالم المعرفة التي تصدر في الكويت.

. له أَكثر من أربعين كتاباً مطبوعاً، وعشرات الأبحاث والمقالات المنشورة في الدوريات والصحف العربية.

شخصيَّته

اتسم **الدكتور شاكر مصطفى** أَكثر ما اتسم بالنَّهم على القراءة والمطالعة، فكان بذلك كأَبناء جيله موسوعي الثقافة شموليَّها، واسع الأُفق، متعدِّد الجوانب الإبداعية، ولقد لاح نهمه للمعرفة وعشقه للقراءة منذ نعومة أَظفاره، فكان وكأَنَّ له لدى الكتب ثأراً، وهذا ما جرَّ إليه في تلك الأَيَّام كثيراً من المتاعب والهموم متجلِّيةً في استنكار والده عليه هذا النَّهم واعتباره ذلك ضرباً من إضاعة الوقت، الأَمر الذي حدا به إلى ضربه كلما لاقاه قارئاً مجلة أَو نحوها، ولكنَّ إصراره على تثقيف نفسه، ومثابرة القراءة والمطالعة هو الذي أَوصله إلى سدَّة الفكر، وهذه المكانة السامقة بين المؤرخين.

ولقد ظلَّت هذه السمة ملازمة له، فظلَّ نهماً على القراءة ملازماً لها، وها هو ذا يحدِّثنا بذاته، في مقدِّمة كتابه **الأَدب في البرازيل،** يقول: «ما وقع بيدي كتاب عنها ـ البرازيل ـ إلاَّ قرأته، ولا مقال في مجلَّة إلاَّ تدبَّرته، أَو خبر في صحيفة إلاَّ جمعته إلى أُخوته».

وقد كان لهذا الاغتناء الفكري أثرٌ واضح في حياة الدكتور **شاكر مصطفى** وكتاباته «فحديثه ـ كما يصفه **عيسى فتُّوح** ـ إن تكلم أو حاضر وشيٌ منمنمٌ، لا أجمل، ولا أمتع، ولا أحلى... تقع كلماته المرنانة في السَّمع وقع النغم الجميل، تشدُّك إليها، ولا تستطيع أن تنفلت من إسارها مهما حاولت، لا تدعك تندُّ أو تشرد، لأنَّها خارجة من القلب، ومضمَّخة بالعطر وزهر النارنج (ملحق الأسبوع الأدبي / ٥٧)».

وهو ذو مواهب متعدِّدة الألوان الإبداعية، يتنقَّل ببراعة بين التاريخ والشِّعر والأدب والرَّسم والخط، ولذلك لا تخلومجالسته من الطرافة والمتعة الجليلة والفائدة العظيمة، بل والدَّهشة البالغة من ثقافته الموسوعية والشاملة، وهذا ما يصفه الأُستاذ **عيسى فتُّوح** بقوله: «فخرجت من زيارته مدهوشاً بثقافته الواسعة، وعلمه الغزير، ومعجباً بحديثه اللطيف، وتواضعه الجم، ودماثة خلقه... حدَّثني يومئذٍ عن الأدب والعلم والفن والتاريخ والأخلاق والسياسة والفكر حديث العارف بكل شيء، المحيط بكلِّ شيء، وتساءلت في نفسي: كيف استطاع هذا الإنسان أن يجني كلَّ هذه الكنوز المعرفية، ويختزنها في صدره كما يختزن البحرُ دُرَرَهُ الغوالي؟».

وهو إلى جانب ذلك يأتزر بتواضعٍ جمٍّ جليل، ويتوشَّح برهافة الإحساس، والحرص على أحاسيس الآخرين، وهذا أمر جدُّ طبيعي،

ولا سيَّما إذا علمنا أَنَّ أُستاذنا فنَّان مبدع حقيقي، يشهد له بذلك صوره الجمالية المرصَّعة في الكتابة التاريخية والأَدبية والشِّعرية ورسوماته، ولذلك تراه يقول ـ وكأَنَّه يعبِّرُ عن حاله: «إنَّ هَزَّةً في المشاعر أَفضل في تزويق الحياة وتوجيهها من أَلف مجلَّدٍ من حكمة، وأَلفِ برهان من المنطق...

وكثيراً ما رأَينا الحياة عند بعض العباقرة تستحيل حساسيَّة مرهفة فقط، وشعوراً لاهباً حارَّاً يزدري بالعقل ويتركه وحده يبكي عزلته، ومسكنه (في ركاب الشَّيطان / ٩٧)».

فيلسوف الأَدب

جليٌّ أَنَّ الأَدب فنٌّ، ولأَنَّ الأُستاذ **شاكر مصطفى** قد جمع في شخصه سمتي الأَديب / الفنَّان والعالم فقد ميَّز لنا بين العملين الأَدبي والعلمي، وبين صفات كلٍّ من الفنِّ والعلم، كاشفاً عن طبيعة الظواهر العلمية وآليات التعامل مع كلِّ ضرب منها، ومُظهراً سمات الصور الفنِّيَّة والجمالية، وكيفيَّة التعامل معها، فقال ـ في مقال له عن العلم والفن:

«العلم يقسم الوجود ليدرسه جزءً بعد جزء، والطبيعة مجرد ظواهر منفصلة، بعضها يُجمع وبعضها يُراقب وثالث يدخل المختبر، وتفلت من بين أَصابع العلماء الدقيقة تلك الرابطة بين الأَجزاء، وتعطيها معناها، تفلت الحياة، ولا يستطيع العالم أَن يعود فيرى

الكون على أَنَّه وحدة عضويَّة حيَّة متماسكة ما دام قد مزَّقه منذ البدء. لا يستطيع أَن يفهم جمال الثلج على القمم أَو روعة **كليوباترا**، أَو موسيقى **فاجنر**، وأَنَّ للمنظر الثلجي بالجمال وهوليس أَكثر من بلَّورات من الماء فوق حجارة عارية، ومن **لكليوباترة** بالرَّوعة وهي ليست أَكثر من نسج وأَمصال دمويَّة متوازنة توازناً فيزيائيَّاً كيماوياً. إنَّ الفنَّان يبدأُ بالنظر إلى الوجود ككلٍّ ولعلَّه من الأَصحِّ أَن نقول إنَّه يمنح الظاهرة العابرة دفعةً واحدةً صيغة الكلِّ ويصل إلى المعرفة بالحدس المباشر دون ناقشة للحدود أَوغرق في الدَّقائق».

ولكن ما العلاقة بين الأَدب (الفن) والحياة، والإنسان، والحرِّية، والطَّبيعة، والبيئة... كلُّها أَسئلة تدور في فلك فلسفة الفنِّ والأَدب، وقد أَجابنا **الدكتور شاكر** عنها في أَكثر من مكان من كبته ومقالاته، فالفنُّ عنده «يرمي إلى امتداد الوجود وتوسُّعه، فهونقطة انطلاق وهمسة إيحاء، وهو لهذا تمرُّد وحرِّية ولا تنتهي مهمَّته بانتهاء خلقه، إنَّه يظلُّ ناقصاً حتَّى يأتيه متأمِّلٌ يقوم بعملية إبداع أُخرى تتعلَّق بها على الشكل الذي فهمه به، إلى ذاته، فالأثر في الفن نداءٌ لحرِّية الآخرين، لأَنَّ الإنسانية لا تأخذ هذا الطابع إلاَّ بالحرِّية التي تشرق في النفوس، فالحرِّية منطلق الحياة وصيغتها الممنوحة من الخالق عزَّ وجل (**عبد الكريم حبيب** . ملحق الأُسبوع الأَدبي / ٥٧)».

ويؤكِّد وشاجة العلائق بين الفنِّ أَو الأَدب والبيئة الطبيعية والاجتماعية، مبيِّناً صعوبة فهم أَدب أُمَّة ما أَومجتمع ما بعيداً عن البيئة الطبيعيَّة والاجتماعيَّة التي ولد فيها فيقول في مقدِّمة كتابه الأَدب في البرازيل: «أَردتُ أَن أُلقي القارئ في أَجواء البرازيل الحارَّة، أَن أَنثرها أَمامه، في غاباتها الوحشيَّة، وعبر سمائها ذات الزرقة اللازورديَّة، وعلى آفاقها في بعدها اللانهائي، وبين ناسها الذين تختلط فيهم كلُّ ملامح البشر وكلُّ أَلوان البشر... بدون هذه الأَجواء لا تستطيع فهم البرازيل والنفاذ إلى أَدب البرازيل الحار القلق. أَدب البرازيل معجون بطينها وصخرها وغاباتها، ملتصق الالتصاق الرحمي بناسها وعروقها فلا سبيل إليه إلاَّ من خلال هذا الطين والصخر والغابة والناس والعروق. هنا المدخل».

أَمَّا عن العلاقة بين الفنَّان وفنِّه، الأَديب وأَدبه، فإنَّه يرى أَنَّ الإبداع الأَدبي أَوالفنِّي إفصاح عن مكنونات الذات واختلاجات أَعماقها، ولكنَّه ـ ويكاد يتفرَّد في هذا الرأي الطريف الأَصيل ـ يرى أَنَّ الإبداع ضرب من تحرير الذَّات، نوع من الانعتاق من إسار الغموض والضَّبابية التي تعتلج فيها الأَفكار والمشاعر، يقول مُعَبِّراً عن ذلك في مقال له (**لمن نكتب؟**): «إنَّني إنَّما أَكتب لأنقل غير الواضح في نفسي إلى الوضوح والنُّور، لأُزيل الغموض والضباب في أَعماقي، إنَّ الزَّهرة لا تتحدَّد أَوصافها إلاَّ بعد أَن تتفتَّح... أَكتب وأَعرف أَنَّ الكلمة التي تحرِّرني هي في الوقت نفسه قيدي، والحروف التي تجمع

شتاتي هي نفسها الصُّوى والحدود في سديمي، فكلُّ كلمة أَيضاً تخم، ولكنَّ كلَّ كلمة أَيضاً نصرٌ على العدم».

مؤرِّخ الأَدب

عندما أَرَّخ **شاكر مصطفى** الأَدب، وتحديداً القصَّة والرواية في سوريا، لم يكن هناك ذلك النِّتاج الأَدبي اللازم والكافي – في هذا الجنس الأَدبي الذي زعم بعض النُّقَّاد أَنَّه كان وليداً جديداً . ولذلك كانت خطوته بمثابة المغامرة، أَو الوثبة في المجهول،لأَنَّ أَيَّاً من النُّقَّاد لم يكن ليفكر بخوض غمار مثل هذا المشروع الكبير في فنٍّ لم ينل شهادة الميلاد الرَّسمية، ولم يُعترف به كجنس أَدبي له الحقُّ في الوجود.

والحقُّ أَنَّ **الدكتور شاكر** . في اعتقادنا . لم يكن يفكِّر على هذا النَّحو، لأَنَّ له رأياً آخر يختلف عمَّا ذهب إليه كثيرون، لقد أَكَّد أَنَّ القصَّة والرواية ليستا وليدتين ولا دخيلتين على تراثنا وأَدبنا، فلنا فنُّنا القصصي المتميز بأسلوبه وخصائصه وسماته التي تجعله الابن الشرعي للأَدب العربي، أَمَّا فنُّ الذي يطنب النُّقَّاد في الحديث عن حداثته وولادته الحديثة في تاريخنا العربي فهو دخيل لأَنَّه ابن الحضارة الغربية المولود على الأَرض العربية، ولذلك تراه عندما حاور الدكتور **عبد السَّلام العجيلي** في تحكيمه مسابقة القصَّة قد رفض قوله إنَّ القصَّة العربية جديدة، وقال له:

«القصَّة ليست جديدة في الأَدب العربي، والجديد فيها اليوم، والدَّخيل أَيضاً، هو هذا النَّهج الغربي في العرض والأَداء، ونحن حقَّاً قد اقتبسناه مع السترة والبنطال، وأَظنُّ الدكتور **العجيلي** يوافقني على

أَنَّه ليس من الضروري أَن ينطبق نهج أُمَّة في النتاج الأَدبي مع نهج أُخرى، وليس عدلاً أَن نقيس **جاحظ** القرن التاسع أَو**حريري** القرن العاشر في الحضارة العربية **بتشيخوف** القرن التاسع عشر و**بيرك بول** القرن العشرين في حضارة الغرب».

ولذلك عندما وضع كتابه المهمِّ جدَّاً *محاضرات عن القصَّة السّوُريَّة حتَّى الحرب العالمية الثانية*، الذي طبع سنة ١٩٥٨م، فقد وضعه عن دراية ووعي لا بدافع حبِّ المغامرة أَو الوثبات مجهولة المستقرِّ، فكان دقيق التحليل، منهجيَّ النَّقد، علميَّ المعالجة. ولأَنَّه أَوَّل كتاب يُخصُّ لهذا الغرض استحقَّ صاحبه لقب الريادة في تأريخ الأَدب القصصي في سوريا «إنَّ كتاب محاضرات عن القصَّة في سورية . كما يرى **سمر روحي الفيصل** . يمتاز بدقَّة تحليلاته ورهافة ذوق مؤلِّفه، وقدرته على إطلاق أَحكام قيمة دقيقة، وإحاطته بالنُّصوص مضموناً وشكلاً، وجهده في تقديمها ضمن سياقها العام، وليس هناك كتاب آخر بعد ثلاثين سنة ونيف بلغ ما بلغه كتاب **الدكتور شاكر** في الميزات السابقة (ملحق الأُسبوع الأَدبي/٥٧)».

الأَديب

إنَّ **شاكر مصطفى**، بشهادة لفيف كبير من النُّقَّاد والأُدباء والمفكِّرين، أَديب بارع له مكانته المتميِّزة بين الأُدباء، وله أُسلوبه الخاص البليغ السلس الممتع، الموشَّح بالطَّرائف، الموشَّى بالظَّرائف،

المزركش باللفتات البارعة، المنمنم بالصُّور الرَّائعة، يصفه **نزار قبَّاني** . في تقديمه لكتاب *بيني وبينك* المطبوع عام ١٩٥٥م . فيقول: «إنَّ **شاكر مصطفى** . من زاويتي أنا . أَوَّل كاهن بشَّر بنثر فنِّي من طراز لم يعرفه تراب بلادي من سنين، فأَنا، الأَدب عندي تعبير غير عادي عن مشاعر عاديَّة، سترى في أَدب **شاكر** طيباً غير عادي». ذلك أَنَّه، كما يصفه **عيسى فتُّوح** بحق:«الأَديب، الفنَّان، المبدع، الذي يكتب بدم القلب لا بالحبر».

ولعلَّ من أَفضل من قرأَ أَدب **شاكر مصطفى** وعبَّر عنه بصدق ودقَة هوالأُستاذ **ممدوح فاخوري** الذي يقول: «فمثل هذا الطِّيب غير العادي . كما يصفه الشاعر **القبَّاني** . لا ينبعث من زهرة واحدة، في حديقة كاتبنا، أَولون واحد من الأَزهار، بل من جملة أَزاهير متنوِّعة، لكلٍّ منها عطرها الذي يميِّزها، ولونها الذي تختصُّ به، وحتَّى لوكان من زهرة واحدة، فهو نتاج جملة من العناصر فيها، لكلٍّ منها أَثره فيما اجتمع لها من عطر، وما زهاها من لون وبهاء».

ويتابع الأُستاذ **فاخوري** مُحلِّلاً أَدب **شاكر مصطفى** فيقول: «النَّظرة السطحيَّة إلى نثر **الدكتور شاكر** قد تحرف صاحبها عن وجه الحكم المنصف، فتصوِّر له أَنَّ جمال أُسلوبه مردود إلى أَناقة لفظه ورشاقة تعبيره وحسب، أَي إلى مجرد جمال لفظي، ومع أَنَّنا نرى أَنَّ أَناقة اللفظ شيء آخر غير البهرج الفارغ الذي لا يحمل شيئاً ولا يعبِّر عن شيء، وغير السراب الذي خدع صاحبه عن حقيقة ما ورائه، بل هي

مرآة صافية تشفُّ عن ذوق رفيع وحسٍّ مرهف . فإنَّنا نرى في الوقت نفسه أَنَّ جمال أُسلوب الكاتب لا يقتصر على ما ذُكر، ولو كان كذلك لما مَلَكَ صاحبه ساحة النَّثر وقُلِّد مفاتيحها، ولكان شأنه شأن أَساليب كثيرة مماثلة، ولم تعد قيمته قيمة الزَّهرة الصِّناعية، يروقك منها شكل ولون...».

إنَّ الملفت للنَّظر في عموم نثر **شاكر مصطفى** الأَدبي هوجمعه البارع الرَّائع بين جماليتي الشكل والمضمون، اللفظ والمعنى، ولا عجب لطالما أَنَّه امتلك ناصية اللغة امتلاك الشَّاعر المبدع، وأَصرَّ على ضرورة انبثاق التعبير الأَدبي من شغاف القلب، معبِّراً تعبيراً صادقاً عن الأَحاسيس التي تختلج في أَعماقه، ناقلاً إيَّاها من شكلها التجريدي الغامض، الضَّبابي، إلى صورتها الحسِّيَّة، الواضحة، الجليَّة، ولذلك لا يسعنا إلاَّ القول مع **عيسى فتُّوح**: إنَّ «الكلمات في أَدب **شاكر مصطفى** رسوم، والعبارات لوحات فنِّيَّة... وهي موسيقى وأَلحان شجيَّة حيناً، مطربة حيناً آخر... ولا غرابة **فشاكر** رسَّام، وإن لم يُقم المعارض وينضم إلى نقابة الفنون الجميلة «ولنقف عند هذه اللوحة الساحرة التي يُصوِّر فيها العالم البرازيلي تصويراً يأخذ الأَلباب ويثير كامل الإعجاب. يجعلك تشعر وكأَنَّك تُحلِّق فعلاً في أَجواء هذا العالم، ويأسرك حتَّى تجد خفقان قلبك شبه صدًى لرنيم أَلفاظ هذه الصورة وموسيقاها، يقول:

«والبرازيل عالم... بكلِّ ما في العالم من تنوِّع لا ينتهي، ومفاجأة تلجم اللسان، وجمال يورث الدوار، ودبيب وحش، وجوع، وجنون، ورعب، وأَنهار كالبحار تتدفَّق في جلال مكين، وصخور ثلجيَّة تثقب الغيم لتطلَّ على الفضاء المطلق، وسهول تركض الفرسان شهوراً في جَنبَاتها الخضراء، والأُفق هوالأُفق... وهنود بلون النحاس، وزنوج كالليل أَوأَشدُّ سواداً، وسمراً أَخذوا الشمس تحت الإهاب، وأَوربيون أَتعبتهم زرقة العيون وشقرة الشَّعر، فهم غرباء كالعنز البيضاء في القطيع الأَسود».

صحيح أَنَّنا بدأنا الحديث في الجانب الأَدبي وتجلِّياته عند **شاكر مصطفى**، إلاَّ أَنَّ الجانب الأَحبَّ، والميدان الأَرحب عند أَديبنا هو العمل التاريخي الذي سلخ له **الأُستاذ شاكر** عزيز جهوده وجليلها، فاستحقَّ بذلك عن جدارة ما نُعِتَ به من أَلقاب لها أَهمِّيتها ودلالتها الواقعيَّة، فهو بحقٍّ شيخ المؤرخين العرب المعاصرين، وهو منصف التاريخ العربي الإسلامي، وهو رائد الكتابة التاريخيَّة الحقَّة، وهو مُؤَرِّخُ المؤَرِّخِين.

ونحن إذ نقول ذلك فإنَّنا لا نلقيه جزافاً، ولا يدفعنا إليه ميل أَو هوى، فمكانة **الأُستاذ شاكر** معروفة، وهومشهود له بسمو هذه المكانة ورفعتها، من كبار النُّقَّاد والمفكرين، يقول الدكتور **محمد الرميحي**: «إنَّ الكُتَّاب الموسوعيين في زماننا قِلَّة، ومن هؤلاء القِلَّة كاتبنا هذا، فعندما تقرأ له فأَنت بالجديد مُزَوَّد، وعلى الطَّريف مطلع، وبالأُسلوب السلس متمتِّع، ولعلَّ دراسته التاريخ قد أَعطت كاتبنا ذاك البعد الذي سمَّاه هوغبار الماضي (الذي لا يفارقه)، ذلك البعد جعل

عيني مؤلفنا تتثبَّت على المستقبل، وعندما يتناول قضايا العرب المعاصرة فأَنَّه يجسد من التاريخ أَمثلة وهو إلى المستقبل طامح».

إنَّ الذي يضفي الرَّونق على كتابات **الدكتور شاكر** التاريخيَّة هو لغته الأَدبية الأَنيقة، وعباراته الرَّشيقة، الوارفة بوشي الحسن والجمال، الممزوجة بالأَحاسيس المرهفة؛ أَحاسيس الفنَّان الحقيقي، ثم ثقافته الموسوعيَّة التي لم تقف عند حدود المادَّة التاريخيَّة وحدها، بل تعدَّتها إلى ميادين الفلسفة والأَدب والفنِّ والشِّعر... حتَّى تجد نفسك وأَنت تتنقَّل بين سطوره كأَنَّك تحلِّق فُوَيق جَنَّةٍ غَنَّاء، مليئة المحاسن، بديعة الرُّواء. ولا يفوتنا هنا الحديث عن حصافته وفصاحته في العرض، وبراعته وتفنُّنه في ترتيب الأَحداث وسَلسَلتها على نحومُعجِبٍ رشيق، جذَّاب أَنيق، يشدُّ الانتباه، ويجعل القارئ متشوِّقاً للمتابعة، راغباً في المزيد.

مؤرِّخ المؤرخين

لعلَّ أَهمَّ انجازات أَديب المؤرِّخين هي مشروعه الضَّخم الذي لم يكتمل بعد، المعنون بـ: التاريخ العربي والمؤرِّخون، الذي صدر الجزء الأَوَّل منه عام ١٩٧٨م، هذا الكتاب الذي يجعلنا نَسِم **شاكر مصطفى** بأَنَّه مؤرِّخ المؤرِّخين بحق.

تتجلَّى أَهمِّية هذا الكتاب في عدَّة سمات لعلَّه الوحيد الذي تفرَّد ببعضها، فهوموسوعة تكاد تكون شاملة، كاملة، أتى فيها على المؤرِّخين والمتحدِّثين في التاريخ العربي الإسلامي وعدد هائل من المؤلَّفات التي أَناطت هذا المجال بعنايتها. وقد بيَّن **الدكتور شاكر** ما دفعه إلى القيام

بهذا العمل الجادِّ الأَصيل، مبرزاً أَوَّلاً دور العرب في ولادة علم التاريخ وتطوَّره ونمائه. وإسهامهم الجليل فيه من خلال المؤلَّفات الضَّخمة والهائلة التي قدَّمها العرب على نحو لم يشهد له التاريخ مثيلاً حتَّى العصر الحديث، وليقدِّمَ من خلال ذلك أَيضاً الدليل القطعي على التاريخ لم يشهد أُمَّة تهتمُّ بالتاريخ كما اهتمَّت به الأُمَّة العربية. وليكون هذا الكتاب من ثم الدليل والمرشد المهمَّ جدَّاً للباحثين والمهتمِّين بالتاريخ العربي الإسلامي، بما سرده وعرَّف به من مصادر ومؤلِّفين.

ولم يغفل المؤلِّف عن الاعتراف بفضل سابقيه والحديث عن انجازاتهم من العرب وغير العرب، وليعلن بتواضع العالم الجليل أَنَّ كتابه ليس إلاَّ محاولة تطمح بكثير من التواضع أَن ترسم بعض الخطوط والملامح في تأريخ علم التاريخ، وأَن تكون نوعاً من المصباح الهادئ لفهم المصادر التاريخيَّة في معارجها ومسالكها.

كتابة التاريخ العربي

بداية، يعترض **الدكتور شاكر** على المقولة الشائعة (إعادة كتابة التاريخ)، فهويريد كتابة التاريخ، أَي نقله من صورته التدوينيَّة إلى صورته العلميَّة، المنهجيَّة، وعلى الرُّغم من ذلك فإنَّنا لا نستطيع إلاَّ أن نستشفَّ من بين سطوره تطلَّعه إلى إعادة كتابة التاريخ أيضاً. وموجنات ذلك كثيرة وتستحقُّ وقفة تأمُّل طويلة، ولعلَّها تتركَّز في سؤاله الذي مهَّد به بحثه الشَّيِّق المفيد: *خطيئات في التاريخ القومي العربي*، المنشور في *البعث الأُسبوعي* في ١٧ و ١٩٩٠/١٢/٢٤م. بقوله: لماذا نظلُّ

مصلوبين إلى مجموعة كلمات نردِّدها ونحسُّها هي ماضينا ؟ ونردِّدها كالببغاء... جملاً ساكنة ذات بعد واحد ؟

ولكن ما هوالتاريخ ؟

يعتقد كثيرون أَنَّ التاريخ هونهر الزَّمن المتدفِّق من الأَزل إلى الأَبد، ولكن **الدكتور شاكر** يرفض هذا المفهوم، وقبل أَن يقدِّم لنا تعريفه للتاريخ يعلِّق على هذا المفهوم بقوله: «إنِّي أَشكُّ في أَنَّ الزمن هو الذي يمرُّ بنا نحن بني البشر، وأَرى بالعكس تماماً أَنَّنا نحن الذين نمرُّ به، نحن الذين نقطع هذا الذي نسمِّيه زمناً وتاريخاً وصيرورة، وأَزلاً وأَبداً».

إنَّ التاريخ عند **شاكر مصطفى** علم وفنٌّ بآن معاً؛ علم لأَنَّه ليس أَيَّ عمل اعتباطي، عشوائي، يسطِّر الأَحداث كيفما اتفق، إنَّه علم له أُصوله وقواعده ومناهجه، وهو فنٌّ لأَنَّه يعيد بناء الماضي بطريقة نوعيَّة متميِّزة، وبهذا الصدد يقول: «أَعني بكلمة تاريخ تدوين التاريخ وكنابته، أَعني تلك العملية الإنسانية البحتة التي يسجِّل بها البشر في الصحف وعلى الآثار، ويعيدون عن طريقها تذكُّرهم لما يسمَّى بالماضي، ويعيدون بناء هذا الماضي، هذه العملية التي لا يقوم بها إلاَّ الإنسان وحده بين المخلوقات، ولعلَّها هي أَساس الحضارة الأَوَّل بشكلها التراكمي، ولعلَّها هي ما نسمِّيه بالتقدُّم الإنساني... ولذلك نستطيع القول: سمِّي الإنسان عاقلاً لأَنَّه مؤرِّخ.

وانطلاقاً من هذا المفهوم أَراد **شاكر مصطفى** كتابة التاريخ، بينما فهمه الآخرون على أَنَّه يريد إعادة كتابة التاريخ، ولذلك نجده

يؤكِّد دائماً أَنَّ تاريخنا لم يكتب بعد وإن كان قد دوِّن، يقول مبيِّناً هذه الحقيقة:

«كلُّ ما لدينا منه تخوم حوله، أَشباه تاريخ ولا تاريخ، قصص تطول وتقصر، لا كيان حيٌّ متجدِّدٌ في الأَعماق، وإذا لم يكن أَحد يستطيع أَن يتكلم عن أَخطاء في التاريخ بمعناه العام لأَنَّه الحياة الإنسانية بكلِّ عناصرها وتفاعلاتها ومسيرتها، فإنَّ الكثير الكثير يمكن أن يقال عن تدوين هذا التاريخ بالأيدي الإنسانية المعرَّضة لمئة انحراف وانحراف، وعن كتابته لبناء حيٍّ متماسك».

وهنا قد يتساءل متسائل فيقول: وماذا تعتبر تلك الأُلوف المؤلَّفة من الكتب التي قد تعجز الذَّاكرة عن حفظها، وما بال أُولئك الأَعلام الكبار والعلماء الأَجلاَّء: **ابن الأثير وابن كثير والطَّبري والمسعودي وابن خلدون وابن طولون** وغيرهم ؟ يجيب **الدكتور شاكر** قائلاً:

«قد تكون مفردات هذا التاريخ، مواده الأَوَّليَّة، عناصره المكوِّنة، موجودة قد دوِّنت، أَمَّا التاريخ نفسه فلم يكتب ببناء تاريخي متكامل حي، أَرأيت لوج ًمَعتُ لك من الحديد والإسمنت والرَّمل والحجارة أكواماً، أَتسمِّي ذلك بناءً ؟ أَتقبله ولو عشَّاً أوكوخا لا قصراً ؟ تلك في اعتقادي هي الصُّورة... تدوين التاريخ شيء وكتابته شيء آخر».

ويتابع قائلاً: «التدوين شيء قد عرفناه، وأَتقن العرب خاصَّة أَركانه والأَبعاد المنهجيَّة أَكثر من غيرهم ولدينا منه ركام طويل، أَمَّا التاريخ فبناء فكري، إعادة استحضار للحياة الإنسانية التي مرَّ عليها الزمن، أَو

مرَّت به. وإن يكن بالمواد التاحة. وبأَيدي الإنسان لتكون الشخصيَّة القومية حيَّة قويَّة متماسكة، كما تكون ذاكرة لكلِّ إنسان لنقله من تدوين بنى التاريخ إلى كتابته هي الحلقة المفقودة، لهذا أَرفض أَن أَقول المقولة الشَّائعة عن إعادة كتابة التاريخ، أَقول دوماً كتابته».

التاريخ لا يعيد نفسه

وكما أَنَّنا لا نعيد كتابة التاريخ، كذلك فإنَّ التاريخ لا يعيد نفسه، ولذلك يعترض الدكتور شاكر على الفلاسفة والمؤرِّخين الذين ذهبوا إلى تأييد هذه الفكرة بمختلف مدلولاتها ومعانيها الإشتقاقية والتأويليَّة، فيقول:

«التاريخ لا يعيد نفسه أَبداً، ولا يمكن أَن يعيد نفسه ولو أَراد. إنَّها تجديف على الله وعلى الحقِّ هذه المقولة. القائلون بأَنَّ التاريخ يعيد نفسه ينكرون أَوَّل ما ينكرون قدرة البارئ المصوِّر على خلق ما لا ينتهي من أَلوان الحياة. بلى ! قد تكون هناك تشابهات بين فترة من التاريخ وأُخرى... ولكن ليس ثمة مطابقة ولا تماثل... هناك دوماً عوامل جديدة في الحياة وخلق جديد... إنَّ الأَمس لا يعود أَبداً لكنَّ نظرة الإنسان الكليلة وكسله الفكري هما اللذان يُخَيِّلان إليه أَنَّ ثمة إعادة وتكراراً في الكون... ولو كانت هذه إعادة صحيحة فمن أَين جئنا وجاء هذا الجيل من الناس الذي نُعايشه بهذه الحضارة القائمة ؟

ولنتذكَّر على الدوام. ما من حيٍّ على الأَرض إلاَّ وله تاريخ. ولكنَّ بعض المخلوقات تعبِّر عنه بالكلام وبالتسجيل، وبعضها أَعجم كالدَّواب والشَّجر لا تسجِّل شيئاً ولا يبقى لها من ماضيها شيء... وإذا كان العقل إنَّما كان عقلاً لتراكم الخبرات فيه فهذا هوبالضَّبط التاريخ (من مقابلة أجراها معه جمال عبُّود / البعث، العدد ٨٣٩٠)».

آثاره

إنَّ ما قدَّمه الأُستاذ **شاكر مصطفى** تراث ثرٌّ بمضمونه وعدده، فله مئات المقالات والأبحاث المنشورة في الصُّحف والمجلاَّت العربية، آملين منه أَن يجمعها في كتب تكون قريبة من تناول الباحثين والدَّارسين لما لها من عظيم الأَهمِّية والفائدة، أَمَّا كتبه والتي بلغت عشرين ونافتعنها فقد نفد كثير منها، وبعضها لم يكتمل بعد. وتعميماً للفائدة نورد فيما يلي ثبتاً بكتب أُستاذنا مرتَّبة حسب تواريخ صدورها:

١. تاريخ العرب والإسلام، بالإشتراك مع بسَّام كرد علي وجوج حدَّاد . وزارة المعارف . دمشق . ١٩٤٩م.

٢. سورية ولبنان جغرافيَّاً، بالإشتراك مع بسَّام كرد علي وأَنور الرِّفاعي . مكتبة العلوم والآداب . دمشق . ١٩٤٩م.

٣.العالـم الحديث . بالإشتراك مع أَنور الرِّفاعي . مطبعة العلوم والآداب . دمشق . ١٩٥٠م.

٤.بيني وبينك . دار الرُّواد . دمشق . ١٩٥٥م.

٥.حضارة الطِّين . دار الرُّواد . دمشق . ١٩٥٥م.

٦.في التاريخ العباسي . مطبعة الجامعة السُّوريَّة . دمشق . ١٩٥٧م.

٧.محاضرات عن القصَّة في سورية حتَّى الحرب العالـميَّة الثانية . جامعة الدُّول العربية . القاهرة . ١٩٥٨م.

٨.معنى السَّلام عند إسرائيل: ماذا تريد إسرائيل ؟ . جمعيَّة المعلمين الكويتيَّة . الكويت . ١٩٦٩م.

٩.دولة بني العبَّاس . وكالة المطبوعات الكويتيَّة . الكويت . ١٩٧٣م.

١٠.الذِّكرى والتاريخ؛ أَبحاث تاريخيَّة مهداة إلى قسم التاريخ في الجامعة الكويتيَّة . إشراف الدكتور شاكر مصطفى . جامعة الكويت . الكويت . ١٩٧٨م.

١١. تراث الإسلام؛ تصنيف شاخت، الجزء الأَوَّل ترجمة محمد زهير السَّمهوري وشاكر مصطفى . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . سلسلة عالـم المعرفة . العدد (٨) . الكويت . ١٩٧٨م.

١٢.أَزمنة التاريخ الإسلامي . تأليف وتصنيف عبد السَّلام الترمانيني (٢ مج)؛ تحقيق شاكر مصطفى وأَحمد مختار العبادي . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت . ١٩٨١م.

١٣.التخطيط لتنمية عربية: آفاقه وحدوده (بالإشتراك) . شركة كاظمة . الكويت . ١٩٨٢م.

١٤.الدليل في التاريخ العربي الإسلامي . مؤسسة الكويت للتقدُّم العلمي . الكويت . ١٩٨٦م.

١٥.الأدب في البرازيل . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . سلسلة عالم المعرفة . العدد (١٠١) . الكويت . ١٩٨٦م.

١٦.من الغزو الصَّليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٨٧م.

١٧.الثقافة العربية والاعتماد على الذَّات: نحو تنمية عربية تعتمد على الذَّات؛ بالإشتراك مع الدكتور فؤاد زكريا . دار الشَّباب / نيقوسيا ومؤسسة الليل / الكويت . ١٩٨٨م.

١٨.تاريخنا وبقايا صور . سلسلة كتاب العربي . الكويت . ١٩٨٩م.

١٩.الأَندلس في التاريخ . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٩٠م.

٢٠.التعليم والثقافة كحاجات أَساسيَّة في الوطن العربي . تعليقات عادل عبد الكريم ياسين وشاكر مصطفى . دار طلاس . دمشق . ١٩٩٠م.

٢١.دول العالم الإسلامي ورجالها؛ الجزء الأَوَّل . دار العلم للملايين . بيروت . ١٩٩٣م.

مدحة عكّاش

أَمـــير الثَّقافـــة

لا بدَّ لنا ونحن نتحدَّث عن روَّاد الفكر العربي المعاصر في سورية أَن نتوقَّف وقفة نوعيَّة عند شخصيَّة متميِّزة لا يمكن تجاوزها أَوغضُّ الطَّرف عن جليل جهودها وإسهاماتها في تفعيل الحركة الثَّقافية والفكرية في سورية والوطن العربي منذ أَواخر الخمسينات، هذه الشَّخصيَّة التي يجسِّدها مدحة عكَّاش، ولعلَّ من يتساءل هنا: إذا كان عادل العوَّا قد قدَّم نظريَّة أَخلاقيَّة، وبديع الكسم قد وضع محور مذهب فلسفي، وشاكر مصطفى قد بلور منهجيَّة تاريخيَّة... فما الذي قدَّمه مدحة عكَّاش على هذا الصَّعيد حتَّى يقف رائداً بين روَّاد الفكر المعاصر في سورية ؟

صحيح أَنَّ هذا ما سنبيِّنه فيما سيأتي من كلامنا، إلاَّ أَنَّنا لا نجد مناصاً من الإشارة الآن إلى أَنَّ مدحة عكَّاش قد استحقَّ هذه المكانة الرِّياديَّة، لا بفضل ما قدَّمه من آراء ونظريَّات وأَدب . وهو لا يخلو ومن ذلك . وإنَّما بفضل مساعيه النبيلة، وجهوده الجليلة في رفد الحركة الثقافية بالمواهب المبدعة ودعم المبدعين وتشجيعهم منذ

الخمسينات وحتَّى الآن، هذا إلى جانب جوانب أُخرى كثيرة سنأتي على أَهمِّها في بحثنا هذا، ولكن الحري بنا في اعتقادي أَن نعرِّف أَوَّلاً **بمدحة عكَّاش** من خلال أَهمِّ محطَّات حياته وثمَّ من خلال بعض الشَّهادات به من أَعلامنا البارزين والمبدعين.

محطَّات في حياته

. من مواليد الجمهورية العربية السورية عام ١٩٢٣م.

. حصل على الشهادة الثانوية في دمشق.

. حصل على إجازة في الحقوق من جامعة دمشق.

. اشتغل في تدريس اللغة العربية في ثانويات دمشق.

. شغل منصب نقيب التعليم الخاص.

. عضو اتحاد الصحفيين العرب.

. عضو اتحاد الكتاب العرب.

. رئيس جمعية الشعر في اتحاد الكتاب العرب.

. أَسس مجلة الثقافة عام ١٩٥٨م. واستمرت في صدورها حتَّى عام ١٩٧٤م، حيث أَصبحت تصدر أُسبوعية، ثم تابعت صدورها أُسبوعية وشهريَّة حتَّى الآن.

. له ديوان مطبوع بعنوان يا ليل، وهو شعر غزلي عن مرحلة من حياته ما بين ١٩٤٠ و١٩٥٧م.

. له مخطوطات قومية لم تنشر بعد.

. له مخطوط صحيح اللغة (يقوم بإعداده منذ فترة).

. أَوراق عمر (مذكرات شخصية).

. قدَّم العديد من الدراسات أَهمُّها:

. ابن الرومي.

. بدوي الجبل.

. رسائل الجاحظ.

. ترجمة ديوان شعر عن الإنجليزية بعنوان القصائد الأُولى للشاعر بيتر تومبست.

. نال جائزة جبران العالمية لعام ١٩٩٠م من رابطة إحياء التراث العربي في استراليا.

. نال وسام الاستحقاق من الدرجة الثانية من جمهورية كوريا الديمقراطية لعام ١٩٩١م.

. يقدِّم جائزة سنوية للبدعين العرب في مختلف أَوجه النشاط الأدبي والفكري.

شهادات

الحقُّ أَنِّي وجدت نفسي محتاراً متردِّداً في اختيار أَو عرض آراء مفطرينا وأَعلامنا بأُستاذنا **مدحة عكَّاش** لأنَّ ما وقفت عليه من هذه الشَّهادات . ليست كلَّها . إنَّما هي كمٌّ هائل من الآراء والأَقوال المشرِّفة التي قيلت في مدح **مدحة عكَّاش** وتقريظ جهوده ودوره

الرِّيادي في الحركة الثَّقافية في سورية، وفي إبراز معالم شخصيَّته النَّقيَّة الصَّافية وسماحة نفسه وكرمه، ولا أُريد أَن أُعرِّج على الشِّعر فإنَّ ما قيل في **مدحة عكَّاش** من القصائد قد لا يجمعه كتاب واحد، ولا عجب فإنَّ الشاعر لا يحيَّا إلاَّ شعراً.

العماد مصطفى طلاس: يقول موجِّهاً الكلام **للأُستاذ مدحة عكَّاش**: «إنَّ استمراركم في نشر الثقافة الأَدبية، وقد بدأ معظم الناس يطووها، دليلٌ على البعد الحضاري الذي *تجسَّد هذه المرَّة بابن حماة وليس بابن باريس*... إذا قلت لك إنَّك أَصمعيُّ القرن العشرين فما جافيت الحقيقة، ولولا مجلَّة الثقافة لاختفت روائع عديدة لم يعد حتَّى أَصحابها يملكون صورة عنها... وحتَّى المؤلَّفات الكاملة للأُستاذ **زكي الأَرسوزي** والأُستاذ **صدقي اسماعيل**، ما كان لها أَن تظهر لولا الاستعانة بإرشيف مجلَّتكم العظيمة» (الثقافة ـ كانون الثاني / ١٩٨٤م).

الدكتور ابراهيم الكيلاني: يقول للأُستاذ **مدحة**: «كلما شاهدتك، أَوسمعت بك، تمثَّلتَ لي جنديَّاً عائداً من معركة، معركة ظال فيها الجهاد والجلاد، أَيُّ جندي أَنت من جنود الأدب والفكر الذين وقفوا في السَّاحة شاهرين القلم دفاعاً عن القيم التي جاهدت الإنسانية قروناً طويلة للحفاظ عليها» (الثقافة ـ م.س).

عبد الغني العطري: يقول: «تكريم (***الثقافة***) المجلَّة، وتكريم صاحبها... تكريم للثَّقافة والأَدب والفكر في كلِّ مكان.. وإنَّ

تكريمك أنت بالذَّات هوبعض حقِّك على الجهات التي تُعنى بشؤون الأدب والفكر في وطننا العزيز» (الثقافة . م.س).

عبد المعين الملوحي: يقول **للأُستاذ مدحة:** «حميت الأدب والأُدباء طوال خمسة وعشرين عاماً، وقدَّمت أجيالاً من الكتَّاب إلى وطنك جيلاً بعد جيل، ويشرِّفني أنِّي اشتركت في معركتك الأدبية» (الثقافة . م.س).

الدكتور نذير العظمة: يقول: «إنَّ جناحي المبدع والإنسان **مدحة** مرَّت على شغاف قلبي من قبل، وزرعت فيه محبَّة الإبداع وعشق الحريَّة اللذين يوحِّدان فينا الإرادة والعزم لنجعل العالم على صُورة المبدع» (الثقافة . م.س).

الدكتور حسام الخطيب: يقول:«يزداد المرء إكباراً لجهاد **مدحة عكَّاش** حين يطالع تارخ الصَّحافة الأدبية في سورية منذ مطلع هذا القرن فيجد أنَّها مثل زنابق أيَّار تومض وتتألَّق فجأة ثم سرعان ما تنطفئ حين تُعقد عليها الآمال، ولعلَّ المرء لا يبالغ إذا أكَّد أنَّ متوسط عمر هذه المجلاَّت الأدبية لا يكاد يجاوز سنتين للواحدة، وفيما عدا مجلاَّت المؤسسات الرَّسمية، لا نجد أيَّة مجلَّة تناهز في العمر مجلَّة الثَّقافة» (الثقافة . م.س).

الدكتور اسكندر لوقا: يقول: «عرفنا **الأُستاذ مدحة عكَّاش** ناصحاً مرشداً، وعرفناه صديقاً وزميلاً، وعرفناه محتضناً للأدب القديم

والحديث، التقليدي والجديد، وكان من هذا المنطلق، عَبر إطلالته على ما ينشر في الثَّقافة كالمنارة على شاطئ الآمال التي تراود الباحثين عن الخلاص في الكتابة، ولم يكن في وقت من الأَوقات إلاَّ الجندي المجهول» (الثقافة . م.س).

اسماعيل عامودا: يقول **للأستاذ مدحة:** «إنَّك . والحقُّ يقال . رجل أَدب وعلم ومعرفة قلَّ أَمثاله في هذه الأيَّام... تتلمذ عليك جيل من طلاب الأَدب ومحبِّي اللغة... فقد كنت أُستاذاً لجيل كامل من الذين تبؤءوا . فيما بعد . المراكز المرموقة واستلموا الأُمور العالية في بلدي وبخاصَّة الأَدبية منها... كما أصبح منهم من شقَّ طريقه الأَدبي، علماً من أَعلام النَّهضة الأَدبية المعاصرة»(الثقافة . م.س).

نصر الدين البحرة: يقول: «**مدحة عكَّاش** (مدرسة أَدبية كاملة)... وهولم يُدرِّس الأَدب فحسب... بل درَّس الأَخلاق أَيضاً، ومن سوء حظِّنا أَنَّه كجميع الكبار في هذا الزمان، وتلك العهود، نسيج وحده، ولا أَحد يقدر أَن يقف بجانبه» (الثقافة . م.س).

نزار نجَّار: قال في حفل توزيع جوائز **مدحة عكَّاش** الأَدبية لعام ١٩٩٢ م: يقولون إنَّ كتاب القصَّة خرجوا من معطف **جُوجَول** وأَنا أَقول إنَّ معظم الكُتَّاب في سورية خرجوا من مدرسة **مدحة عكَّاش**، وأَنا مدين لمدرسة هذا الأَديب الكبير.

الشاعر الراوية

لعلَّه من غرائب الأُمور أَن يكون الشُّعراء كثيرون ورواة الشِّعر قلَّة، بل نادرون، حتَّى إنَّك تكاد لا تجد راويتين للشعر في عصر واحد، وإن كانا فلن تجد ثالثاً، ومدحة عكَّاش هو راوية عصرنا بحق، هذا بشهادة كلِّ معاصريه وعارفيه من روَّاد الحركة الثقافية والفكرية المعاصرة في سورية وصولاً إلى الأُدباء الشَّبان.

لقد حفظ الأُستاذ **مدحة** من أَشعار العرب ما يخطر بالبال وما لا يخطر، للقدماء والمعاصرين، ولذلك تجد نفسك وأَنت تجالسه كأَنَّك تسبح أَوتحلِّق في رياض الشعر؛ تشدُّك مع كلِّ التفاتةٍ زهرةٌ جديدة، ويجتذبك في كلِّ لحظة أَريجٌ أَعبق وأَشذى. وتزداد متعة أَكثر عندما يقرن لك أَيَّ حادثة أَو طرفة أَو حكمة أَو أَمر أَ، خبر ببيت شعر أَوأَبيات، فتحسب «إذا سمعت منه رواية الشعر أَنَّ الشُّعراء ما أَباحوا بشعرهم إلاَّ إليه، حتَّى يخيَّل إليك أَنَّ **حمَّاد** يتمنَّى أَن يكون تلميذاً لديه»(محمد وهبة . الثقافة الأُسبوعية . ٣٢ / ١٩٩٣م). قد تخطر ببالك شطرة من الشعر فلا تتذكَّر شطرتها الأُخرى، فتسأله، فيذكرها لك، ويذكر البيت السابق والبيت اللاحق إن وجدا، ويخبرك عن المناسبة التي قيلت فيها هذه الأَبيات، ويُعرِّفك بقائلها، ومكانته وفترته.

ولم يقتصر **مدحة عكَّاش** على رواية الشعر وحشب، بل هو شاعر أَصيل جمع بين موهبتي التَّذوُّق والنظم، ولست أُريد الحديث

كثيراً عن شعره لأَكثر من سبب، ولعلَّ أَهمها أَنَّه لم يطبع من شعره إلاَّ مجموعة واحدة ضمَّت الأَشعار التي نظمها في شبابه ما بين ١٩٤٠ و١٩٥٧ م. ولذلك فإنَّ الحديث عن **مدحة عكَّاش** الشاعر لن يكون وافياً ولا شافياً لإذا ما اقتصرنا على أَشعار فترة وجيزة من عمره الطويل، إن شاء الله، قيلت قبل أَكثر من خمس وثلاثين سنة.

يا ليل؛ هو عنوان المجموعة الشعرية التي صدرت للشاعر الأَديب **مدحة عكَّاش** في عام ١٩٨٤م، وأُعيد طبعها أَكثر من مرَّة، بمقدِّمة عذبة لأَديب المؤرخين الدكتور **شاكر مصطفى**، كتبها عام ١٩٥٧م.

إنَّ الوقوف عند هذا العنوان الطَّريف اللطيف المحبب إلى القلوب قد يكفي لتستشفَّ مضمون الأَشعار، ولعلَّها الوحيدة بين المجموعات الشعرية التي يلبس فيها العنوانُ المضمونَ على نحو معجب مدهش، فالأَشعار كلُّها بوح من الذات إلى الذات، ومن الذات إلى الحبيبة، الحبيبة المجهولة التي يتحاشى الشاعر ذكر اسمها، أَو ما يدلُّ عليها، بل يَعِدُها أَلاَّ يكشف عن حبِّه لأَحد أَبداً، فيقول:

سيسلب الدَّهر منِّي كلَّ غالية
وحبُّك البكر لا يدري به أَحَدُ

إنَّها مناجاة في عتمة الليل، تسبقها (الأُوف) وتتلوها (الآه) وتتوسَّطها (الميجنا)، فجاءت أَشعاراً مفعمة بالأَحاسيس، رقيقة لطيفة، عذبة طريفة، تحفُّها الرَّشاقة والأَناقة. وهكذا جاءت

المجموعة كما يصفها الأُستاذ **شاكر مصطفى** «من الدفَّة إلى الدفَّة ليست أَكثر من أَغان للحب، وصلوات للجمال، إنَّها زقٌّ نواسيٌّ معتَّقُ العطر والحبِّ والصلاة تسلل من قلب شاعر إلى شفتيه، ومن شفتيه إلى حبر المطبعة».

سألته الحبيبة لما سمعته يرتِّل مشاعره شعراً: كيف أَصبحت شاعراً؟

ثم قالت وقد عراها فتورُ كيف أَصبحت في حياتك شاعرْ

فيردُّ عليها بقوله:

حسناء! وحيكُ صاغها فأَساغها ولسان شاعرك الوفي رواها

وكيف لا تلهمه وهي كما يصفها أَبهى من البهاء وأَجمل من الجمال:

أَنتِ أَحلى من كلِّ شعرٍ وفنْ أَنتِ أَبهى من الجمال وأَنضرْ

أَنتِ بيت القصيد في خير ما أَبدع ربِّي من الجمال وصوَّرْ

ولذلك ذكراها عالقة أَبداً في ذهنه وخياله:

سمراء لا تحسبي إن غبتِ عن نظري

تغيب عن خاطري الأَحلامُ والذِّكر

لقد عذَّبه ذلك الجمال حتَّى غدت كلُّ جارحة من فؤاده تردِّد ذكر الحبيب:

أَيقظت في مهجتي إحساسها فشدا

في كلِّ جارحة من مهجتي وتَرُ

هذه بعض معالم **مدحة عكّاش** الشّعري، وليست أَهمُّها، على أَنَّ هذه المجموعة الصَّغيرة، في اعتقادنا، غير كافية لإبراز الهويَّة الشّعرية لصاحبها.

أُمَّةٌ في رجل

يقول أَحد المفكِّرين . إن لم تخني الذَّاكرة هو **بودلي**ر: كلمة مدح تقال لي خير من أَلف كتاب يكتب عنِّي بعد موتي. وقد أَدركت كثيرٌ من الأُمم أَهميَّة هذه المقولة، التي هي بمثابة دعوة صريحة إلى تكريم المبدعين وإحاطتهم بالرِّعاية والاهتمام إبان حياتهم، فسارعت إلى الأَخذ بمضمونها بصورٍ متعدِّدة ومتباينة، تضمن للمبدع حياة كريمة، ولكنَّ أُمتنا العربية؛ على امتداد مساحتها، وغناها، وعراقتها، تفتقر إلى اللباقة في التَّعامل مع مبدعيها، بل إنَّنا بارعون فيما يؤنف من البراعة فيه، أَو فيما لا تجرؤ أُمَّة على التفكير فيه؛ إنَّنا نبحث عن المواهب لنحطِّمها لا لنكرِّمها، لنخنقها لا لننميها، لنضع العراقيل أَمامها لا لنمهِّد دربها، لنقودها إلى الهاوية لا إلى القمَّة، وكأنَّ من العار أَن يكون لدينا مفكِّرين وعلماء كباراً. هذه فلسفة أُمَّتنا الآن في الإبداع. ومن عجب أَنَّ أُمَّتنا التي لم تجمع منذ مطلع هذا القرن على أَنر، تكاد تجمع على مكافحة الإبداع أَكثر مما تتَّفق على مكافحة الإرهاب أَو الجوع.

صحيح أَنَّ المبدعين الحقيقيين لا ينتظرون إغداق الأَلقاب ولاحفلات التَّكريم، بل كثيرون أُولئك الذين يفضِّلون البعد عن الأضواء وما لها من جلبة وضوضاء، ذلك أَنَّهم حملة الأَمانة المخلصين الذين

يؤدُّون الواجب لأَنَّه واجب لا لشكر ولا لمدح. ولكنَّ ذلك ليس يعني أَبداً عدم ضرورة الاحتفاء بالمبدعين وتكريمهم وإحاطتهم بمزيد الرِّعاية والإهتمام، فإذا كان **بودلير** جريئاً وصرَّح باسم المبدعين بشيء يملء نفوسهم بهجة، فإنَّ المبدعين الحقيقين على العموم يتَّسمون بالتَّواضع من جهة وبالحساسية المفرطة من جهة ثانية.

في مثل هذه الظُّروف السيئة من تنصُّل المؤسسات الرسمية والحكومية من مسؤولياتها في تشجيع البدعين والأَخذ بأَيديهم، نهد **الأُستاذ مدحة عكَّاش** لينهض بأعباء هذه المهمَّة الجليلة، بل المهام الثَّقيلة، ويقدَّر فيه إلى جانب اسهاماته هذه، عدم انتظاره الشُّكر أوالجزاء. ويمكننا، عموماً، أَن ندرج هذه الجهود تحت ثلاثة أَنواع، هي تشجيعه للأدباء الشَّباب والأَخذ بأيديهم، وجائزته السَّنوية، وتكريمه للأدباء الكبار.

أَوَّلاً: الكشف عن المواهب

ليس بدعاً من الخيال، ولا تعديَّاً على الحقيقة أَن نقول إنَّ معظم أُدباء قطرنا وشعرائه وكتَّابه قد نبتوا ونموا في حديقة الثقافة، بضل تشجيع صاحبها **مدحة عكَّاش** ودعمه.

يقول الدكتور **اسكندر لوقا**: «منذ أَواخر الخمسينات، ومع ولادة مجلة ***الثقافة*** لم تفتقد أَقلام الأُدباء، كباراً وناشئة على حدٍّ سواء، هذا الحقل الفسيح الذي شهد ثمار نتاجهم بما يحمله من أَريج وطيب فوَّاح، في أَرض الوطن وخارجه، فقد كانت الثقافة من

هذه الناحية، حقلاً بكلِّ ما في هذه الكلمة من معنى، وحقلاً حافلاً بدفء الكلمة وصدقها وأَمانتها في أَداء وظيفتها، من حيث إنَّها التزام بالإنسان، بفكره وقلبه»(الثقافة . م.س).

نعم، لقد أَخذ **مدحة عكَّاش** على عاتقه مهمَّة الكشف عن المواهب الناشئة وتشجيعها بأَكثر من سبيل، أَهمُّها النشر لها في مجلَّتيه، ونشر ما تيسَّر من نتاجات هؤلاء في كتب على نفقته، وإن لم يكن ذلك فقد فتح باب دار مجلَّته مشرعاً لنشر الكتب بأَسعار زهيدة، دون أَن ننسى حرصه الشَّديد جدَّاً على كلِّ كتاب يطبع عنده، وربَّما أَكثر من حرص صاحبه عليه، بمتابعته خطوة بخطوة، من التَّنضيد إلى التصحيح والتَّنقيح فالطباعة والتَّجليد. ويعجبك أَكثر ما يعجبك في **الأُستاذ مدحة عكَّاش** عدم تحيُّزه أَبداً لصالح أَديب مشهور على حساب آخر مغمور أَوناشئ، بل وممَّا يحسب له تحيُّزه للنَّاشئين والمبتدئين أَكثر لأَنَّهم لا سند لهم ولا مُعِين. قد يقول قائل إذا كان هؤلاء المواهب الحقيقة فإنَّها كفيلة بنجاحهم، ولذلك تراني أَقول: إنَّ من يطَّلع على واقع (الشُّلليَّة) التي تشبه العصابات، المسيطرة على منابر الفكر والأَدب يدرك مدى أَهمِّيَّة الكوة التي يفتحها **الأُستاذ مدحة** ليطلَّ منها هؤلاء المبدعون الشَّباب، وسيدرك أَنَّه لولا **الثَّقافتين** لظلَّت كثيرٌ من المواهب دفينة، ولماتت كثيرٌ من المواهب واندثرت.

وممَّا يُسبغ على جهود الأُستاذ **مدحة** مزيداً من الأَهمِّيَّة والجلال أَنَّه في حين أُغلقت الأَبواب دون النَّشئة والمبتدئين، كان صدره رحباً

واسعاً لستيعابهم وتشجيعهم ودعمهم بجهود فرديَّة، محض فرديَّة، وليس ثمة ما يلزمه بذلك أبداً، ولعلَّ هذا ممَّا أثار حميَّة أنصار (الشُّلليَّة) وهواة التَّقوقع في عصابات تحارب كلَّ ما ليس يسير في ركابها، فراحوا يتهجَّمون على ثقافتي الأُستاذ **مدحة** ويتَّهمونها بعدم الإرتقاء إلى مستوى المجلاَّت الأُخرى، نعم، إنَّهم لا يريدون لأحد أن يكون أديباً أوشاعراً أومفكِّراً سواهم، ومن يسمحون له، ولا يسمحون إلاَّ لمن يتمسَّح بأعطافهم ، ويقف كالذَّليل على أبوابهم، فكيف يفتح **مدحة عكَّاش** الباب لظهور هذه المواهب ؟! إذن فإنَّ ما ينشره سيء، رديء، لا أُريد أن أصف جهل هؤلاء وانقلاب الموازيين في عقولهم، ولكنِّي أقول ما قاله العماد **مصطفى طلاس**: «إذا كان بعضٌ من الأُدباء الظرفاء أخذ على **مدحة عكَّاش** نشر بعض القصائد التي لا تسمو إلى المعلَّقات فردِّي عليه هو: إذا لم ينشر **عكَّاش** للكادحين من الأُدباء فمن ينشر لهم ؟».

ثانياً: الجائزة

وممَّا يحسب **لمدحة عكَّاش** من المآثر التي سبق فيها المؤسسات المختصَّة؛ الثقافية والحكومية، هي تخصيصه جائزة سنوية لحقول الإبداع الفكري والأدبي، من قصَّة وشعر ومقالة ودراسة، تبلغ مئة وخمسين ألف ليرة، توزَّع على الفائزين بهذه الجائزة مع شهادة تقدير، وتبرز أهمِّيَّة هذه الجائزة في جوانب ومسائل كثيرة؛ منها أنَّها ميدان جديد يتسابق فيه

المبدعون وصولاً إلى المستوى الأَفضل بشكل دائم، وهي تشجيع مادي ومعنوي لحفز المبدعين على التَّفوق والارتقاء ومكافأتهم مادياً على ذلك. وتبرز الأَهميَّة الأَكبر لهذه الجائزة عندما نعلم أَنَّها كانت الأُولى من نوعها في قطرنا على تعدُّد مؤسساته ومنابره الثقافية، الفكرية، التي لم تفكِّر قبلها بالنهوض بمثل هذا المشروع الرَّائد، ويكلِّل مدحة عكَّاش جائزته بنزاهة التحكيم وموضوعيَّته، وهذه مسألة جدُّ مهمَّة لا ينبغي إغفالها، لأَنَّ كثيراً، وكثيراً جدَّاً من المسابقات تفتقر إلى مثل هذه النزاهة، لأَنَّها محفوفة بالمحسوبيات والصِّلات الشخصيَّة. لا أَقول هذا الكلام لأَنِّي فزت بجائزته، فللحقِّ أَقول إنِّي لم أَشترك في مسابقة قبلها قط، ولا بعدها، ولا أُحبُّ الاشتراك في المسابقات، ولولا ثقتي **بالأُستاذ مدحة** لما اشتركت في مسابقته.

ثالثاً: تكريم الأَحياء

لعلَّ بعض المؤسسات الفكريَّة قد فطنت مؤخَّراً إلى ضرورة تكريم الأَحياء من المبدعين والمفكِّرين الكبار؛ قبل الموت،وضرب الكفِّ بالكفِّ والقول ليت وليت، وإعلان الأَسف والنَّدم على ما كان من تقصير. هذا بعد مطالبات ودعوات كثيرةٍ من النُّقَّاد والصحافيين الذين عرفوا قدر ومكانة أَساتذتهم، بل أَساتذتنا جميعاً، من المفكِّرين العظماء بحق، العظماء بإسهاماتهم الجليلة والقديرة في إرساء قواعد ثقافة عربية، ودعائم نظريَّات فكريَّة عربية... في تحديد هويَّتنا وابراز معالم شخصيَّتنا القومية.

ولكنَّ **الأُستاذ مدحة عكَّاش** لم ينتظر كلَّ هذه الفترة الطَّويلة ليقدِّر المبدعين الكبار وليكرِّمهم أَحياءً، فقد أخذ على عاتقه أَيضاً

هذه المهمَّة منذ ما ينوف عن خمس وثلاثين سنة، فكرَّم الأُدباء والشُّعراء والمفكرين، واحتفى بهم، إمَّا بإصدار أَعداد خاصَّة من مجلَّة الثقافة عنهم كما كان للشاعر **القروي رشيد سليم الخوري والياس فرحات وبدر الدين الحامد ووجيه البارودي وعمر أَبورشة وعمر يحيى والشيخ عبد اللطيف عيد الصالح وسلامة عبيد ونجيب الريس ونجيب حرب وزكي قنصل.** أَو بإقامة حفلات التكريم الخاصَّة كما كان **لوجيه البارودي وعمر يحيى وأنور الجندي وعبد اللطيف اليوني وإلفة الإدلبي** وغيرهم ممَّا يُعدُّ لهم **الأُستاذ مدحة** الآن حفلات التكريم التي تليق بهم.

فهل قام أَحدهم بما قام به مدحة عكَّاش، بل هل قامت مؤسَّسة مختصَّة بمثل ما قام به **أَبوعاصم**، لا أَظنُّك تجد أَحداً مهما أَطلت البحث والتنقيب، ولذلك استحقَّ فعلاً أَن يوسم بأَنه أُمَّة في رجل ورجلٌ في أُمَّة، قلَّ أَن يجود علينا الدَّهر بمثله،فهل نقدِّم له بعض ما قدَّم ؟ هل نستطيع أَن نكافأه إذا نحن حاولنا أَن نكافأه ؟

دفاعاً عن الحقِّ لا عن الثقافة(*)

لشدَّ ما سائني وآلمني أن سمعت من إحدى الشخصيات الأدبية التي يمكن وسمها بالمرموقة بعض التلميحات الانتقادية، بل التصريحات، لمجلة الثقافة والثقافة الأُسبوعية، والمؤلم في ذلك غير

(*) ـ نشرت هذه الفقرة في الثقافة الأُسبوعية ـ العدد ٤٤ ـ في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٩٣م.

واحد، وبداية لا بدَّ أن أُبين أَنَّ الانتقاد بحدِّ ذاته ليس مؤلماً ولا معيباً، بل النقد العلمي، الموضوعي، ليس إلا الركن الركين لمواصلة النجاح وتلافي الأخطاء والعيوب والعثرات، ولذلك قيل: رحم الله امرأً أَهدى إليَّ عيوبي، وصديقي من صَدَقَنِي لا مَنْ صَدَّقَنِي. وهذا مسلم به ولا شك. والناحية الثانية التي لا محيد عن تبيانها هي أَنَّ استيائي وامتعاضي من انتقاد الثقافتين ليس ينبع من حبي لهما أوميلي إليهما، وإنما هوموقف أخلاقي محض.

فلماذا هوموقف أخلاقي ؟

يقول هذا الأَديب الذي افتقر لإلى أدب معاملة الأُستاذ الذي نهل من مرابعه واشتهر على يديه: لم تعد مجلة الأُستاذ **مدحة** وصحيفته على ما كانتا عليه من رونق وألق... إنهما تفتقران إلى الجدَّة وتكرران بعضهما. وهنا أريد أن أسأل هذا الأَديب: أين نشرت أَوَّل ما نشرت، ومن الذي شجَّعك على الكتابة وأخذ بيدك حتَّى صرت إلى ما صرت إليه من مكانة وشهرة ؟ إنَّه لا يستطيع أن ينكر أَبداً أَنَّ هذه المجلة التي ينتقدها ويرميها بالعجز والقصور، وصاحبها الأُستاذ **مدحة عكَّاش** هما اللذان مهَّدا طريقه، وأَعطياه الثقة، وأَخذا بيده، هما اللذان صنعا منه أَديباً وشاعراً، وعلى رغم ذلك لا يتورَّع عن توجيه أَصابع الاتهام إليهما فصار بذلك كالذي وصفه **أبو الطيب المتنبي** بقوله:

وأَظلم أَهلِ الظُّلم من بات حاسِداً
لمن بات في نعمائه يتَقَلَّبُ

إنَّ ما أَرجوه هنا أَلاَّ يفهم من كلامي أَنَّ الثقافتين كاملتان لا يعتورهما نقص ولا يتسرب إليهما وهن، فليس ثمة كمال لمخلوق، بل أَجدني مصرَّاً على ضرورة النقد وأَهميته، ولكن هذا النقد الهازئ الساخر من شخصٍ لوليٍّ نعمته أمر يثير كثيراً من التساؤلات والتداعيات المحزنةى فعلاً.

أَلم تكن الثقافة حين كانت تنشر لك وتشجِّعك في حين يصدُّك الجميع، خير مجلة على وجه البسيطة ؟! ثم إذا صرت وتصوَّرت كاتباً أديباً شاعراً تنكَّرت لها وفضلَّت عليها بعض المجت الأُخرى، وإن كانت وضيعة، في سبيل حفنة من الدراهم.

أُستاذي العزيز: إنَّ (الثقافة) لم تتغير ولم تتبدَّل. بل وفَخرٌ لها أَنَّها حافظت على خطِّها وخُطَّتها في حين ندر التزام مجلة بما وجِدَتْ لأَجله، لقد كرَّس الأُستاذ **مدحة عكَّاش** جهده ووقته لرعاية الأُدباء الشباب والكشف عن المواهب المبدعة وتقديمها للقرَّاء والنقَّاد، ودعمها، في الوقت الذي تتهرب جهات مسؤولة عن الاضطلاع بمثل هذه المهمة على الرغم من أَنَّ ذلك واجبها، وتخصِّص، نظرياً، شكلياً، رصيداً محدَّداً للنهوض بهذا الواجب.

وفي حين أَنَّ المجلات والصحف تعجز عن الدوام لفترة قصيرة ما لم تقف وراءها جهود كبيرة وأَموال طائلة كثيرة، فإنَّ (الثقافة) التي

كابدت الخسائر السنوية قد قاومت مختلف الظروف الصعبة، وصمدت لتظلَّ ملاذ الأُدباء السباب ومنبت المواهب.

والأَدهى من ذلك أَنَّ هذا الأَديب وأَمثاله ممن تحلَّقوا حول الثقافة أَيَّام كانت تُوصَدُ دونهم الأَبواب؛ عندما يلتقون الأُستاذ **مدحة** صاحب الثقافة والمكابد منها، والمنفق عليها... عندما يلتقونه الآن، صدفة، دون أَن يجشِّموا أَنفسهم عناء زيارته وفاءً وعرفاناً، يقفون بهيبة واحترام ويمدحون ويقرظون، يقولون: أَنت وأَنت ولولاك ودونك وفضل المجلة وأَهميتها.... تماماً كمن وصفه **دعبل الخزاعي** بقوله:

وذي حسدٍ يغتابني حين لا يرى
مكاني ويثني صالحاً حين أسمعُ
تورَّعتُ أَن أَغتابه من ورائه
وما هوإِنْ يغتابني متورِّعُ
ويضحك في وجهي إذا ما لقيته
ويهمزني بالغيب سرَّاً ويلسعُ
ملأتُ عليه حتَّى كأنَّما
يضيقُ عليه رحبها حين أَطلعُ

إِنَّ المطلوب منَّا قبل أَن نكون موضوعيين أَن نكون أَخلاقيين، لأَنَّ الأَخلاق الفاضلة تفرض علينا أَن نكون موضوعيين، فيما قد لا تؤدي الموضوعية إلى الالتزام الأَخلاقي، أَعني فيما يخصُّنا هنا أَن

ننصف الأستاذ **مدحة** ومجلَّته وألاَّ نكون مرائين. فإذا كان في هذه (الثقافة) عيب فواجب الذين نشأوا في أكنافها أن ينبهوا إلى هذا العيب مباشرة لا بالغمز واللمز والسخرية بعيداً عن المعنيين بها، وإن كان فيها نقص فواجب الذين ترعرعوا في أحضانها أن يسارعوا إلى سدِّ هذا النقص. ولكنَّ حدث أن الأبناء لم يبروا الآباء، أنكروا الفضل والجميل وتعالوا عليه.

فما الذي سيحدث هنا ؟

لا شكَّ في أنَّ المجلَّة ستراوح في مكانها، وهذا ما حدث فعلاً، ولكنَّ هذا لا يعيب المجلة ولا صاحبها، إذ إنَّهما سعيدان بهذه المرواحة، بل إنَّهما مصرَّان على بقائهما في بداية المضمار لأنَّ المواهب الشابة التي تعاني من عدم الاكتراث بها تقف هناك، إنَّ الثقافة إذا قررت الهرولة وراء الكبار ستخسر ذاتها بالمحاباة والممالأة، ويخسر الشباب فُرْجَةً مُهمَّةً يطلَّون منها على العالم الذي ينشدونه ويتطلَّعون إليه، فَتَحِيَّةً (للثقافة) **وتحيَّةً لأمير الثقافة مدحة عكَّاش.**

المشتمل

- **الإهداء** ٥
- **تمهيد** ٧

عادل العوا: فيلسوف أَخلاقي معاصر . ١١

. مكانته وأَهمَّيَّته ١٤
. شخصيَّته ١٦
. ثقافته ١٨
. فلسفته ٢٠
. محطَّات في حياته ٢٣
. آثاره المطبوعة ٢٤
. وأَخيراً ٢٩

بديع الكسم: فيلسوف ولكن ! . ٣١

. الكسم في نظر بعض معاصريه ٣٦
. موسوعية الكسم ٤٠
. شخصيَّته ٤٣
. ولكن ! ٤٥
. الثقافة والكتابة ٤٦
. الفلسفة والتفلسف ٤٧
. أَين من يقرأ ؟ ٤٩
. مسؤولية الكتابة ٥٠
. النزعة السقراطية ٥٠

. كلمة أَخيرة ٥١

حسن البحيري: عبقرية مغتربة . ٥٥

. عبقرية البحيري ٥٧

أَولاً: في التحصيل ٥٨

ثانياً: نبوغه المبكر ٥٩

ثالثاً: الإبداع المبكر ٦١

رابعاً: في أُسلوبه الشعري ٦٣

. الغريب بين أَهله ٦٥

. أَقوال في البحيري ٧٣

سعد صائب: الأَصالة والمبدأ . ٨١

. محطات في حياته ٨٤

. تواضع الأديب ٨٦

. سعد صائب في نظر معاصريه ٨٨

. مكانته وأَهمِّيته ٩٠

. الأَصالة والحداثة ٩٥

. في النثر ٩٥

. في النقد ٩٦

. الحداثة أَصالة ١٠٠

. الحداثة في الشعر ١٠٢

. الحياة موقف ١٠٦

. آثاره ١٠٧

عبد المعين الملوحي: شمولية الإبداع والثقافة . ١١١

. محطات في حياته ١١٤

. شخصيته ١١٦

. من الإلحاد إلى الإيمان ١١٨

. ثقافته ١٢٠

. شمولية الإبداع ١٢٢

١ . تجربته الشعرية ١٢٤

آ . النفس الشعري الطويل ١٢٥

ب . الإلهام الشعري ١٢٥

جـ . غلبة الرثاء ١٢٧

٢ . تجربته القصصية ١٢٩

٣ . إحياء التراث ١٣١

أَولاً: في البحث والدراسة ١٣٢

ثانياً: في الجمع والتعليق ١٣٢

ثالثاً: في التحقيق ١٣٤

٤ . جهوده في الترجمة ١٣٤

. وأَخيراً ١٣٥

شاكر مصطفى: أَديب المؤرخين ومؤرخ الأدباء . ١٣٧

. بطاقته ١٤٠

. شخصيته ١٤٢

. فيلسوف الأدب ١٤٤

. مؤرخ الأدب ١٤٧
. الأديب ١٤٨
. مؤرخ المؤرخين ١٥٢
. كتابة التاريخ العربي ١٥٣
. التاريخ لا يعيد نفسه ١٥٦
. آثاره ١٥٧

مدحة عكاش: أمير الثقافة . ١٦١

. محطات في حياته ١٦٤
. شهادات ١٦٥
. الشاعر الراوية ١٦٩
. أُمة في رجل ١٧٢
أولاً: الكشف عن المواهب ١٧٣
ثانياً: الجائزة ١٧٥
ثالثاً: تكريم الأحياء ١٧٦
. دفاعاً عن الحق لا عن الثقافة ١٧٧
. المشتمل ١٨٣

كتب أُخرى للمؤلِّف

. **كيف ستواجه أَمريكا العالم ؟:** *الهيمنة الأَمريكية والنظام العالمي الجديد* . ن.م . دمشق . ١٩٩٢م.

. **الأُمم المتحدة بين الاستقلال والإستقالة والترميم:** *مأزق الأُمم المتحدة في النظام العالمي الجديد* . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.

. **النظام الاقتصادي العالمي الجديد:** *من حرب الأَعصاب إلى حرب الاقتصاد* . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.

. **فلسفة الفن والجمال عند ابن خلدون** . دارطلاس . دمشق . ١٩٩٣م.

. **دفاع عن الفلسفة:** *الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟* . دمشق . ١٩٩٤م.

. **بديع الكسم** . *«إعداد وتقديم»* . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٩٤م.

. **الدخيل على المصلحة:** *«قصص»* . دمشق . ن.م . ١٩٩٣م.

. **الموت بدون تعليق:** *«قصص قصيرة جداً»* . قيد الطباعة.

. **انهيار الشعر الحر** . قيد الطابعة.

* الكتاب :**هؤلاء أساتذتي :**
من روّاد الفكر العربي المعاصر في سورية.
* المؤلف : **عزت السيد أحمد** .
* **الطبعة الأولى : ١٩٩٤** .
* **النّاشر:** دار الثّقافة. دمشق .